من أسرار التعبير القرآنى
فى الوصايا العشر

دكتور

سعيد إسماعيل الهلالى

مدرس البلاغة والنقد بكلية

اللغة العربية بالزقازيق

من أسرار التعبير القرآنى فى الوصايا العشر

بقلم
د/سعيد إسماعيل الهلالى
مدرس البلاغة والنقد بكلية
اللغة العربية بالزقازيق

الحمد لله الذى أنزل على عبده ورسوله الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الناطقين وأبلغ اللاهجين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ...

وبعد

فمما لا شك فيه أن التعبير القرآنى تعبير فريد فى علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه، وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحداهم أكثر من مرة.

ومن أراد أن يتأكد من هذه الحقيقة، فليمنح الكتاب العزيز شيئا من النظر والتدبر، يمنحه من أسراره ما لم يكن منه ببال، إنه يعطيه من الأسرار والفتوحات أضعاف ما يعطيه من النظر والتدبر؛ لأن هذا الكتاب يمنح من نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من ألطافه ما يجل عن الوصف .

ومن ثم كان القرآن الكريم مورد العربية العذب ومعينها الصافى، ومركز الاستشهاد لكل قاعدة من قواعد علومها.

كلماته أفصح الكلمات، وأساليبه أبلغ الأساليب ، ونظمه أرقى أنواع النظم .

إيجازه أبلغ الإيجاز، وإطنابه أرقى أساليب الإطناب، إذا حذف كان الحذف أبلغ من الذكر، وإذا ذكر كان الذكر لا مناص منه.

وإذا أكد فلابد من أن يكون الكلام مستحقا للتوكد، وإذا أطلق كان الكلام مقتضيا الإطلاق، وهو هكذا دائما فى تقديمه وتأخيره، فى فصله ووصله، فى تنكيره وتعريفه فى تكراره وترداده لا يأتى بكل ذلك إلا فى مقامه وموطنه[1].

إن التعبير القرآنى لم توضع الألفاظ فيه عبثا ولا من غير حساب بل هى موضوعة وضعا دقيقا بحساب دقيق دقيق، كل لفظة بل كل حرف فيه، وضع وضعا فنيا معجزا، ولم تراع فى هذا الوضع الآية وحدها بل روعى فى هذا الوضع التعبير القرآنى كله .

وسوف أحاول فى هذا البحث الذى يتعلق بكتاب الله فى عليائه أن أكشف النقاب عن بعض أسرار التعبير القرآنى فى"الوصايا العشر" التى تضمنتها آيات من أواخر سورة الأنعام بدءا من الآية الواحدة والخمسين بعد المائة. وانتهاء بالآية الثالثة والخمسين بعد المائة.

وسوف أحاول ــ بفضل الله وعونه ــ أن أعرض لبعض السمات البلاغية والخصائص الأسلوبية فى آيات هذه الوصايا ، لنتبين منها لم كان التعبير القرآنى فى أعلى درجات البلاغة ؟!؛ إذ لا يكفى أن نقول إن القرآن بليغ بسبب خصوصيات روعيت فى نظمه وتراكيبه دون أن نبين تلك الخصوصيات ونستشهد لها.

يقول إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجانى : "ولا يكفى أن تقولوا: إنه خصوصية فى كيفية النظم وطريقة مخصوصة فى نسق الكلم بعضها على بعض، حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها وتذكروا لها أمثلة وتقولوا مثل: كيت وكيت.

كما يذكر لك من تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة أو يعمله بين يديك حتى ترى عيانا كيف تذهب تلك الخيوط وتجئ، وماذا يذهب منها طولا، وماذا يذهب عرضا.

---

(١)تأملات فى بلاغة القرآن د/عبدالحميد مصطفى صـ٩مطبعة الأمانة

وبم يبدأ وبم يثنى وبم يثلث، وتبصر من الحساب الدقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم منه مكان الحذق وموضع الأستاذية[1].

وأود أن أشير هنا إلى أن اختيار آيات "الوصايا العشر" ليس لميزة خاصة لتلك الآيات بالذات، فهي لا تنفرد مثلا ـ بخصائص معينة يمكن أن تكون سببا لاختيار، وإنما هي كغيرها من آيات الذكر الحكيم، الكل معجز، والكل في القمة من البلاغة.

وربما كان السبب أني عندما عقدت العزم على دخول ميدان البحث عن أسرار البلاغة القرآنية، وجدت هذه الآيات ـ فوق أنها من سورة واحدة، وأنها مكية ـ يجمعها شيء مهم وهو الإيصاء.

كما أن عددها يتناسب مع حجم البحث وجهد الباحث، لأن البحر عميق ولا نهاية لعمقه، والفكر كليل والقلم ضعيف. بالإضافة إلى أن هذه الوصايا لم تدرس ـ فيما أعرف ـ دراسة بلاغية وإنما درست دراسة تفسيرية قام بها الأستاذ الدكتور / عبدالفتاح عاشور[2].

وسوف يقوم هذا البحث على محورين، يسبقهما تمهيد، ويتأخر عنهما ثبت بالمصادر والمراجع.

في التمهيد: أتعرض لعدة نقاط، وهي: نص الوصايا ، وسر تسميتها بهذا الاسم ، ومكانتها، وأقوال العلماء في عددها، وارتباطها بسورتها.

وفي المحور الأول: أتعرض لدراسة الوصايا العشر، وسوف أحاول أثناء تحليلها، وبيان سمو معاني الآيات، أن يكون التركيز على إبراز السمات البلاغية التي هي المقصود الأهم والهدف المنشود من الدراسة.

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٨٧ ط مكتبة القاهرة.
(٢) الوصايا العشر للدكتور/ عبدالفتاح عاشور.

وفى المحور الثانى: سوف أرصد بعض ملامح الإعجاز القرآنى فى الوصايا العشر من خلال الوقوف مع الفواصل، وطريقة العرض .

على أن منهجى فى هذا البحث، هو المنهج التحليلى المقارن؛ ذلك لأننى حاولت الوقوف أمام كل كلمة فى النظم الكريم، لترى ما توحى به من معان وأسرار، وما يحيط بها من ظلال.

كما حاولت المقارنة بين الآراء التى يحتملها النظم الجليل ـ إذ هو حمال أوجه، ومن خصائصه وفرة الاحتمالات ـ والترجيح بينها معتمدا على السياق والمقام وما يتناسب مع ضوابط اللغة وبلاغة القرآن العظيم، كذلك وقفت متأنيا أمام المتشابهات ـ سواء أكان ذلك على مستوى السورة أم على مستوى القرآن كله ـ أحاول أن أجلى بعض أسرار التعبير فيها، وأن أرصد السمات الأسلوبية والخصائص التعبيرية فى كل موطن، وذلك حتى تكون الدراسة مفيدة فى بابها.

ولا أدعى أن هذه الدراسة قد بلغت الغاية، فكتاب الله لا تقع منه ـ كما يقول الباقلانى فى الإعجاز ـ على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائده إلا قصرت ، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمه إلا وقد أضللت.

وحسبى أنى تعلقت بكتاب الله العزيز ، أحاول فهمه وتدبره ولئن فاتنى بلوغ المراد ـ لضعفى وقصر همتى، وتراكم الذنوب على ـ فعسى ألا يفوتنى الأجر والثواب.

د/ سعيد إسماعيل الهلالى

تمهيد : تسميتها ونصها :

أطلق العلماء على آيات ثلاث من سورة الأنعام اسم الوصايا العشر، وذلك نظرا لتذييل هذه الآيات الثلاث بقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ، وقد روى عن ابن مسعود ــ ﷺ ــ فيما أخرجه الترمذى وابن المنذر والبيهقى وغيرهم ــ أنه قال: "من سره أن ينظر إلى وصية محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام (١٥١ ــ ١٥٣) .

وهذه الآيات هى قوله تعالى:﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

(١) سورة الأنعام ١٥١ ــ ١٥٣ .

وقد تضمنت هذه الآيات عشر وصايا ، خمسا بصيغة النهى، وخمسا بصيغة الأمر، وقد خص التحريم بالذكر مع أن الوصايا التى بها التلاوة أعم، لمناسبة ما سبق من إنكار أن يحرم غير الله؛ ولأن بيان أصول المحرمات كلها يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل، وقد صرح بأصول الواجبات من هذا الحلال العلم.

وقد بدأ هذه المحرمات بالشرك بالله؛ لأنه أعظمها وأكبرها إثما كما أنه أشدها إفسادا للعقل والفطرة[1] .

على أن بعض العلماء قد اعتبر إيفاء الكيل والميزان بالقسط وصيتين، ومن ثم جعل الوصايا العشر فى آيتين فقط، وجعل الآية الثالثة، وهى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ توكيدا، لكن جمهور العلماء جعل الوصايا فى ثلاث آيات وجعل قوله : ﴿وَأَن هَـٰذَا صِرَٰطِى ﴾ تأسيسا وجعله الوصية العاشرة[2] .

مكانتها:

وهذه الوصايا التى جاءت فى هذه الآيات الثلاث جامعة للخير كله، لم ينسخهن شىء من جميع الكتب، فهن محرمات على بنى آدم كلهم لم يختلفن باختلاف الأمم والأعصار من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار، وقد روى كل هذا عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ .

وقال كعب الأحبار: هذه الآيات مفتتح التوراة بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ إلى آخر الآية.

---

(١) راجع تفسير المراغى صـ٦٦ .

(٢) راجع الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٧، والتفسير المنير جـ٧ صـ١٠٠ .

وقال ابن عباس:هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران أجمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملة.

وقد قيل:إنها العشر كلمات المنزلة على موسى عليه السلام[1].

وروى الحاكم أيضا في مسنده من حديث يزيد بن هارون عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : "أيكم يبايعني على ثلاث؟ ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات: ﴿فمن وفى فأجره على الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه﴾.

وفي رواية أخرى عن عبادة بن الصامت: قال : قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات ثم قال: ومن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله ـ إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه"[2].

إلى غير هذه الآثار التي وردت في بيان مكانة الوصايا العشر.

ارتباط الوصايا بسورتها:

هذه الوصايا من سورة الأنعام، وهذه السورة مكية، نزلت بمكة بعد سورة الحجر، وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم؛ لأنه فصل فيها حكم الأنعام من الإبل والبقر والضأن والمعز، وتبلغ آياتها خمسا وستين ومائة آية.

وتمتاز هذه السورة بطولها على السور المكية ما عدا سورة الأعراف، وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة المائدة؛ لأنها من الطوال

(١) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٤٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٥١، ٢٥٧ .

مثلها، ولأنه ذكر فيها كثير من أحكام الحلال والحرام، كما ذكر فى سورة المائدة، وذكر من مبتدعاتهم فيها أكثر مما ذكر فى هذه السورة.

وينحصر الغرض من هذه السورة فى مقصدين اثنين وهما: إثبات التوحيد والنبوة (العقيدة) ، والاحتفال بجانب التشريع[1].

وقد اقتصرت السور المكية عموما على هذا الجانب من حياة الإنسان المسلم فغرست فيه عقيدة التوحيد وربته على الخلق الطاهر الكريم؛ لأنه لم يكن للمسلمين مجتمع ذو قيادة تنفذ أحكامه وتفرض شريعته إنما كانوا أفرادا يطاردهم الكفر ويسومهم سوء الكذب.

والسورة لهذا تبحث عن ينابيع العقيدة لتشبع منها ـ حاجات النفوس والقلوب فتطوف فى عوالم السموات والأرض بما فيها من دلائل القدرة وعظيم الخلق وتضع الأيدى على مفاتيح ـ الحق وأسرار الغيب وتصل بذلك إلى ما أراده منزل هذا القرآن لخليفته من سمو فى الفكرة وارتقاء فى الشعور وارتباط وثيق بين حاضره وماضيه ومستقبله[2].

وقد دحضت السورة مذاهب المبطلين والملحدين، كما أبطلت ما ابتدعوه من تحليل الحرام وتحريم الحلال من الطيبات تقربا لأصنامهم.

وبعد أن سبحت السورة سبحا طويلا فى حجاجها القوى، وبراهينها القطعية جاءت الوصايا العشر فى خاتمة السورة، وكانت هذه الوصايا نتيجة حتمية لذلك الحجاج وتلك البراهين وكان لها وقع النتائج بعد المقدمات،والمقاصد بعد الوسائل،والغايات بعد البدايات[3].

---

(١) راجع النظم الفنى فى القرآن للشيخ عبدالمتعال الصعيدى صـ٩٩ ط دار الآداب .

(٢) الوصايا العشر،د/عبدالفتاح عاشور صـ٣مطبعة الحضارة العربية

(٣) من أسرار التعبير فى القرآن الفاصلة القرآنية للدكتور/ عبدالفتاح لاشين صـ٩٦ ط دار المريخ ـ الرياض .

بل كانت هذه الوصايا في آياتها الثلاث تجميعا وتركيزا لما حوته السورة من حقائق هائلة في الكون والحياة، وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون ومن قدر مجهول، ومن مشيئة تمحو وتثبت وتنشئ وتعدم وتحيي وتميت وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء.

أضف إلى هذا أن مجئ هذه الوصايا بعد مشاهد القيامة ومواقف الحشر ولحظات الأمل والاستبشار، يأتي في موضعه النفسي المناسب؛ إذ تلقى بهذا الأسلوب الجامع لمطالب الحياة ، وتقذف في القلب أنوار الوحي الإلهي، فتشرق الروح وتحقق هذه التعاليم في السر والعلن، ومن ثم يتحقق الخير، وينشر الأمان في كل مكان، ويتحقق معنى الاستخلاف في أرض الله[1].

وقد أجمل المفسرون ــ يرحمهم الله ــ وجه ارتباط الوصايا بالسورة، حينما ذكروا أن الله تعالى لما ذكر ما حرموه افتراء عليه، ثم ذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان ذكر ما حرمه تعالى عليهم من أشياء نهاهم عنها وما أوجب عليهم من أشياء أمرهم بها.

وأضاف أبوالسعود ــ يرحمه الله ــ أن ذكر هذه المحرمات الموجودة في الوصايا كان على الأسلوب الحكيم ؛ لأن الحق ــ عزوجل ــ أمر رسوله ــ ﷺ ــ بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضي الحال بيانه على الأسلوب الحكيم إيذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات، وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت بقوله تعالى: ﴿قل لا أجد﴾ [2] الآية .

(١) الوصايا العشر للدكتور عبدالفتاح عاشور صـ٢٠ .
(٢) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ٢١٨ .

وننظر فى هذه الوصايا ــ التى ترد فى السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها ــ فإذا هى قوام هذا الدين كله ...

إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجرى فيه من معاملات، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله ...

وننظر فى ختام هذه الوصايا، فإذا الله ــ سبحانه وتعالى ــ يقرر أن هذا صراطه المستقيم، وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل ... الوحيد ...

إنه أمر هائل هذا الذى تتضمنه الآيات الثلاث ... أمر هائل يجئ فى أعقاب قضية تبدو كأنها لمحة جانبية من الجاهلية، ولكنها فى الحقيقة هى قضية هذا الدين الأساسية ، بدلالة ربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية ... (١).

وفيما يلى نقف مع كل هذه الوصايا بالتحليل والدراسة، حتى نقف على أسرار التعبير القرآنى لندرك تفوقه على كل الأساليب ونلمس إعجازه لكل المتحدثين على مستوى كل الأمم والأزمان، "ونرى ما صنعه وما يصنعه فى حياة الناس، وكيف أحيا أمة من العدم ونقلها من رعاة أغنام إلى رعاة أمم وبناة حضارات"(٢).

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ٨ صـ١٢٢٩ .
(٢) الوصايا العشر صـ٢١ للدكتور عبدالفتاح عاشور .

المحور الأول: تأملات فى بلاغة الوصايا

وفى هذا المحور نحاول أن نقف أمام كل لفظة فى هذه الوصايا لندرك بعضا من أسرار التعبير القرآنى فى عرضه لهذه الوصايا، ومن ثم نسجل خصوصيات القرآن فى استعمال الألفاظ؛ لأنه يختص كثيرا من الألفاظ باستعمالات خاصة مما يدل على أن التعبير القرآنى تعبير فنى مقصود .

ومن الله العون وعليه التوكل، وفيه الرغبة .

مقدمة الوصايا:

وبالنظر فى هذه الوصايا نجد أن الحق ـ جل وعلا ـ قد استهلها بأسلوب يوحى بالاهتمام والاعتناء، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (١) أى قل لهم هلموا وأقبلوا أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا .

فقد بدئت بكلمة [قل]،وهو من أساليب الأمر وتلقين الحجة، يقذفها فى وجه الخصم حتى تلْخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، كما يدل على نوع خاص من العناية، والاهتمام بالإرشادات التى سبقت بها.

ومن ثم لا تراه إلا فى سياق يقتضيه، اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ (٢).

ـــــ وقوله:﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

---

(١) الأنعام / ١٥١ .
(٢) البقرة / ٨٠ .
(٣) البقرة/ ٩١ .

ـ وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (١).

ـ وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ (٢).

ـ وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣).

ـ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ (٤).

إلى آخر هذه الآيات التى جاء فى سياقها هذا الفعل ـ سواء أكان المخاطب المفرد المذكر أم المؤنث أم المثنى أم الجمع بنوعيه: المذكر والمؤنث ـ وهى تسع وأربعون وثلاثمائة على مستوى السور المكية والمدنية .

ومن اللافت للنظر أن البدء بهذا الفعل (قل) وإن كان كثيرا فى القرآن الكريم إلا أن سورة الأنعام ـ دون كل السور ـ تحظى منه بالنصيب الأكبر، حيث وقع فيها أربع وأربعين مرة، ولعل هذا؛ لأن السورة قد سبحت سبحا طويلا فى حجاجها القوى، وبراهينها القطعية، كما أنها اهتمت بجانب التشريع ـ الحلال والحرام ـ .

وهذا مما يناسبه البدء بفعل الأمر (قل) الذى يوحى بالعناية والاهتمام .

والخطاب فى هذا الفعل لسيد المخاطبين ـ ﷺ ـ ، أمره الحق ـ جل وعلا ـ أن يبين للمشركين ـ بعدما ظهر بطلان ما ادعوا ـ

(١) البقرة/ ٩٤ .
(٢) البقرة/ ١٨٩ .
(٣) المؤمنون/ ٨٦ .
(٤) الإخلاص / ١ .

من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه، وذلك على الأسلوب الحكيم إيذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات، وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت فيما تقدم.

وقد أوحى كلام الخازن ــ رحمه الله ــ بأن قوله [قل] قد فصل عما قبله ؛ لأن بينهما شبه كمال اتصال؛ لأن الله ــ سبحانه ــ لما بين فساد مقالة الكفار فيما زعموا أن الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا: أى شىء حرم الله فأمر الله ــ عزوجل ــ نبيه محمدا ــ ﷺ ــ أن يقول لهم: "تعالوا"(١).

و[تعالوا] أمر من التعالى ــ وهو تكلف الاعتلاء ــ، والأصل فيه أن يقوله من هو فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم اتسعوا فيه فاستعملوه فى الأمر بالإقبال مطلقا، واستعمال المقيد فى المطلق من ضروب المجاز المرسل.

ويحتمل أن يكون أمرا من العلو الذى هو ارتفاع المنزلة، فكأنه يدعوهم إلى ما فيه رفعة وشرف(٢).

وبناء على هذا الاحتمال يكون فى هذه الكلمة تعريض لهم بأنهم فى حضيض الجهل ولو سمعوا ما يقال لهم ترقوا إلى ذروة العلم وقنة العز.

والخطاب فى قوله [تعالوا] قيل للمشركين، وقيل لمن بحضرة رسول الله ــ ﷺ ــ من مؤمن وكتابى ، ومشرك .

وذكر أبوحيان أن سياق الآيات يدل على أنه للمشركين ، وإن كان حكم غيرهم فى ذلك حكمهم أمره تعالى أن يدعو جميع الخلق إلى سماع ما حرم الله تعالى بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر(٣).

---

(١) تفسير الخازن جـ٢ صـ١٩٨ .
(٢) راجع الكشاف جـ٢ صـ٦٠، وتفسير المنار جـ٨ صـ١٨٣ .
(٣) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٤٩ .

لكن القول بأن آيات الوصايا قد نزلت بالمدينة المنورة يؤيد القول الثانى القاضى بعموم الخطاب قصدا.

وأيا ما كان المخاطب، فإن كلمة [تعالوا] تتضمن إرادة تخليص المخاطبين، ورفعتهم من انحطاط هم فيه، إلى علو يراد لهم، ويدعون إليه، ثم إن فيه طلب المتكلم إقبالهم عليه، وانضمامهم تحت لوائه، وهذا أسلوب يشعر بمعانى العطف والرحمة، ويقرب البعيد، ويؤلف النافر.

وقوله سبحانه : ﴿أتل﴾ ، مجزوم فى جواب الأمر، أى إن تأتونى أتل. والتلاوة فى الأصل الاتباع، وهى ـ كما قال الراغب الأصفهانى ـ تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة[1].

فهى تعنى القراءة، والسرد، وحكاية اللفظ، وهى تختص بقراءة كلام الله جل وعلا.

وفى إيثار التعبير القرآنى لكلمة [أتل] إيحاء قوى لتقدير المتكلم مكانة المخاطبين، وارتفاع منزلتهم عنده إلى درجة لا تكلفه فى لفت الأنظار إلى ما يقول أكثر من أن يتلو عليهم، وكأنه قدر أن السماع والتنفيذ مما تكفلته فطرهم السليمة، دون حاجة أن يؤمروا به، وهذا غاية فى اللطف، ونهاية فى التكريم، وتوجيه الخطاب[2].

و(ما) فى قوله : ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ يجوز فيها ثلاثة أوجه، أظهرها: أنها موصولة بمعنى الذى، والعائد محذوف، أى الذى حرمه

(١) المفردات فى غريب القرآن ط الجمهورية "تلى" صـ٧٥ .
(٢) من أسرار التعبير فى القرآن ـ الفاصلة القرآنية للدكتور عبدالفتاح لاشين صـ٩٨ .

ـ أى الآيات المشتملة عليه ـ والموصول فى محل نصب مفعول به، وفى التعبير عن هذه المحرمات بالاسم الموصول، تفخيم تهويل لشأنها، وهذا مما يناسب إيجاب الانتهاء عنها .

والثانى: أن تكون مصدرية، أى أتل تحريم ربكم ونفس التحريم لا يتلى، وإنما هو مصدر واقع موقع المفعول به، أى أتل محرم ربكم الذى حرمه هو . وذلك على سبيل المجاز المرسل.

والثالث: أنها استفهامية فى محل نصب. بـ"حرم" بعدها وهى معلقة لأتل والتقدير: أتل أى شىء حرم ربكم؟ ، وذلك لأن التلاوة من باب القول، فكأنه قيل: أقل أى شىء حرم ربكم .

وهذا الوجه ضعيف؛ لأنه لا يعلق إلا أفعال القلوب وما حمل عليها، و(أتل) ليس من أفعال القلوب، ولذا فلا يعلق[1].

فهذه ثلاثة أوجه، أنسبها بالمقام والسياق الأول.

وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم : "ربكم" تذكير بكونه تعالى ربا لهم ومالكا لأمرهم على الإطلاق، ومن ثم فمن اختصاصه وموضع سلطانه، حق الربوبية، وهى القوامة، والتربية، والتوجيه والحاكمية، فالذى يحرم هو "الرب" والله وحده الذى يجب أن يكون ربا[2].

فالتعرض لوصف الربوبية إذا من أقوى الدواعى لانتهائهم عما نهاهم الحق عنه أشد انتهاء.

وكأن الحق ـ سبحانه ـ يقول لرسوله ﷺ: قل يا أيها الرسول لهؤلاء المتبعين للخرص والتخمين فى دينهم، وللهوى فيما يحرمون ويحللون لأنفسهم ولسائر الناس، تعالوا أقص عليكم

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٧ ، البحر المحيط جـ٤ صـ٢٤٩ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ٨ صـ١٢٢٩ .

وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا لا تخرصا ولا ظنا بل وحيا منه وأمرا من عنده[1].

وقد خص التحريم بالذكر مع أن الوصايا التى بين بها التلاوة أعم ـ لمناسبة ما سبق من إنكار أن يحرم غير الله ، ولأن بيان أصول المحرمات كلها يستلزم حل ما عداها؛ لأنه الأصل، وقد صرح بأصول الواجبات من هذا الحلال العام[2].

وقد ذهب الطبرسى ـ وتبعه جمع من المفسرين ـ إلى أن الفعل "حرم" مضمن معنى (أوحى) ، وذلك ليلتئم مع ما بعده من المتلوات التى تشتمل على أوامر ونواه[3].

قال الشنقيطى ـ يرحمه الله ـ الظاهر فى قوله : ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أنه مضمن معنى ما وصاكم به فعلا، أو تركا؛ لأن كلا من ترك الواجب، وفعل الحرام حرام، فالمعنى: وصاكم ألا تشركوا، وأن تحسنوا ـ بالوالدين إحسانا[4].

وقد بين تعالى أن هذا هو المراد بقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الآية .

فقد بين أن الفعل "حرم" مضمن معنى وصاكم، وذلك حتى يتناسب مع ما بعده من الواجبات والمحرمات، وقد أيد قوله بقول الله ـ سبحانه ـ فى التذييل: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ .

---

(١) الطبرى جـ٧ صـ٢٥١ .
(٢) تفسير المراغى جـ٧ صـ٦٦ .
(٣) مجمع البيان جـ٧ صـ٢٢٩ .
(٤) أضواء البيان جـ٢ صـ٢٧٧ .

وقد ألمح ابن الجوزى إلى أن هذا الفعل "حرم" مضمن معنى فرض أو وجب، والمعنى: فرض عليكم، ووجب عليكم ألا تشركوا ... وذلك حتى يلتئم مع ما بعده من المتلوات(١).

وأما الجار والمجرور (عليكم) فقد ذكر المفسرون فى تعلقه وجهين:

أحدهما : أنه متعلق بـ"حرم"، وهو اختيار البصريين.

وثانيهما: أنه متعلق بـ"أتل"، وهو اختيار الكوفيين.

ويبدو أن المسألة مرتبطة بالإعمال، فالبصريون أعملوا الثانى؛ لأنه الأقرب، والكوفيون أعملوا الأول؛ لأنه الأسبق(٢).

واختيار البصريين أولى وأنسب؛ لأن المقام مقام بيان ما هو محرم عليكم لا مقام بيان ما هو محرم مطلقا، وذكر أبوالسعود ـ وتبعه الألوسى ـ أنه الأنسب بمقام الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة(٣).

ويحتمل أن تكون (عليكم) منقطعة مما قبلها، ويكون ما بعدها منصوبا بها على الإغراء، أى عليكم ترك الإشراك، وعليكم الإحسان بالوالدين، وألا تقتلوا أولادكم، وألا تقربوا الفواحش، كما تقول: عليك شأنك، أى: الزم شأنك، وهى حينئذ نظيرة قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى الزموا أنفسكم(٤).

وهذا القول على الرغم من أن علماء العربية قد أشاروا إليه، إلا أنه أضعف مما ذكره الكوفيون، وذلك لبعد المناسبة بينه وبين

---

(١) زاد المسير جـ٣ صـ١٠٠ .

(٢) الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٧ .

(٣) أبوالسعود جـ٢ صـ٢١٩ .

(٤) راجع فتح القدير جـ٢ صـ٢٥٠، والآية رقم ١٠٥ من سورة المائدة.

المقام؛ إذ المقام ــ كما ذكرنا ــ مقام بيان ما هو محرم عليهم، لا مقام إغراء لهم.

ومن خلال عرض الاحتمالات التى يحتملها النظم الكريم، ندرك أن الكلام إما أن يكون قد تم وانقطع عند قوله سبحانه : ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ، ثم ابتدأ فقال : ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ كما يقال عليكم السلام.

أو أن الكلام تم وانقطع عند قوله:﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ثم ابتدأ فقال: ألا تشركوا به شيئا بمعنى لئلا تشركوا ، والتقدير: أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئا[1].

على أن الوقف على "عليكم" هو الأنسب بالمقام والسياق، ولذا فقد رجحه علماؤنا الأجلاء، وقد ظهر ذلك من خلال وقوفنا مع الاحتمالات التى يحتملها النظم الكريم.

تفصيل الوصايا:

وبعد هذه المقدمة، التى أجمل فيها النظم الكريم، هذه الوصايا، بأسلوب يوحى بالاهتمام والاعتناء ــ بدأ الحق ــ جل وعلا ــ فى تفصيلها بأسلوب دقيق بليغ ، وإن شئت قل معجزا، وقبل البدء فى الوقوف مع هذه الوصايا لاستجلاء خصائصها التعبيرية، أنبه إلى أن بعضها جاء بصيغة النهى، وبعضها جاء بصيغة الأمر الصريح أو المؤول ؛ لأن الأمر بالشىء يقتضى النهى عن ضده، ونكتة الاختلاف لهاته الوصايا سنبينها عند الوقوف مع كل وصية على حدة، والآن نبدأ الوقوف معها ، ومن الله العون، وعليه التوكل .

الوصية الأولى: النهى عن الشرك بالله :

وذلك فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ، وتتضمن هذه الوصية تحريم الشرك بالله ، والشرك بالله هو الكفر به ؛ وذلك

(١) راجع الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٤ .

بأن يجعل له شريكا فى ربوبيته ، تعالى الله عن الشركاء والأنداد .

ولهذا الشرك ثلاثة أنواع :

أولها: إشراك غير الله مع الله؛ وذلك بالاعتقاد بأن هناك إلها غير الله أو معه .

ثانيها: عبادة غير الله أو إشراكه مع الله فى العبادة.

ثالثها: تلقى الشرائع والأحكام من مصدر آخر غير المصدر الإلهى.

وإذا أردنا أن ندرك ماذا يعنى السياق القرآنى هنا بالشرك الذى ينهى عنه فى مقدمة هذه الوصايا، فينبغى علينا أن نلتفت إلى ما قبل هذه الوصايا، لنعلم ماذا يراد بالشرك الذى ينهى عنه ابتداء؟.

ومن خلال مراجعتنا لسياق سورة الأنعام نجد أن الله ــ جل وعلا ــ قد شرح فرق المشركين فى هذه السورة على أحسن الوجوه: الطائفة الأولى من المشركين: يجعلون الأصنام شركاء لله ــ تعالى ــ، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم ــ عليه السلام ــ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (١) .

والطائفة الثانية: من المشركين عبدة الكواكب، وهم الذين حكى الله ــ عزوجل ــ عنهم ، أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ أبطل قولهم بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ (٢) .

والطائفة الثالثة: الذين حكى الله ــ تعالى ــ عنهم أنهم: ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ (٣) وهم القائلون بيزدان وأهرمن.

---

(١) الأنعام/ ٧٤ .
(٢) الأنعام/ ٧٦ .
(٣) الأنعام/ ١٠٠ .

والطائفة الرابعة:الذين جعلوا لله بنين وبنات،وهم الذين حكى الله عنهم فعلهم في قولـــه:﴿...وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [1] وقد أقام الحق ـ جل وعلا ـ الدلائل على فســاد أقــوال هــؤلاء الطوائــف والفرق[2].

كما أن السياق قد تعرض للنوع الثاني من أنــواع الشــرك ـ وهو عبادة غير الله أو إشراكه فيها ـ تعرضا مباشرا، وذلك عنــدما وقف عند مسألة الذبح، وهذه المسألة تبدو في ظاهرها هينة ســهلة حين لا يذكر الذابح اسم الله عند الذبح ـ ولكنها تعني فــي الواقــع قبول الإسلام أو رفضه، ومن هنا توالت الآيات في سورة الأنعــام ـ قبل الوصايا ـ لتبين مدى الخطورة في عدم ذكر الله على ما يــذبح، وتقديم الشعائر لغير الله أو لإله آخر مع الله .

ويصف القرآن هؤلاء بأنهم يضلون بأهوائهم بغير علم وأنهــم معتدون على حق الله، وأنهم يرتكبون الإثم وأن ذلك فسق ... وأنهم شياطين .. وأموات، ومجرمون وضالون عن الطريق .. وظــالمون؛ بل جعل مجرد إطاعة المؤمنين لهؤلاء في بهتــانهم إشــراك، فقــال ســبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [3].

---

(١) الأنعام/ ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٢) راجع الفخر الرازي جـ١٣ صـ٢٤٤ .
(٣) الأنعام / ١٢١ .

ومن أجل هذا يأمر الحق ــ جل وعلا ــ رسوله ﷺ ــ فى نهاية السورة ــ أن يعلن أن الحياة كلها لله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

كذلك تعرض السياق للنوع الثالث من أنواع الشرك، وهو: تلقى الشرائع والأحكام من مصدر آخر غير المصدر الإلهى، فقد كان السياق كله بصدد قضية التشريع ومراولة حق الحاكمية، وقبل آية واحدة من الوصايا كان موقف الإشهاد ، الذى يحسن أن نعيد نصه : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٢).

ومن ثم ندرك ماذا يعنى السياق القرآنى هنا بالشرك الذى ينهى عنه ابتداء ... إنه الشرك فى الاعتقاد ، كما أنه الشرك فى العبادة والحاكمية ... فكل هذه الأنواع الثلاثة تتساوى فى الخروج من طاعة الله ووحدانيته، وتندرج تحت الشرك الذى نهى عنه الحق ــ جل وعلا ــ فى بداية هذه الوصايا، أى أن السياق القرآنى فى سورة الأنعام قبل الوصايا العشر، هو الذى يحدد المعنى بالشرك الذى تبدأ بالنهى عنه هذه الوصايا .

والنهى عن الشرك بالله بناء على ما سبق يعنى توحيد الله سبحانه، ولهذا التوحيد قواعد ثلاث: توحيد ذاته، وتوحيد جهة العبادة، وتوحيد جهة الحكم والتشريع.

---

(١) الأنعام / ١٦٢ ــ ١٦٣ .
(٢) الأنعام/ ١٥٠ .

فهو سبحانه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الذى يجب أن يفرد ـ إذن ـ بالعبادة ، وأن يرد إليه أمر الحكم والتشريع وحده[1].

وقد بدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الوصايا بالنهى عن الشرك وتحريمه؛ لأن الشرك أعظم المحرمات، وأكبر الكبائر، ومن ثم لا يقبل الله تعالى معه شيئا من الطاعات، وقد أكد الله هذا فى أكثر من موطن فى القرآن الكريم، كما أكده الرسول الكريم ـ ﷺ ـ فى السنة المطهرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [3] ، وقال سبحانه ـ على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [4] .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثا ـ ؟ قالوا: بلى يا رسول ، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس ـ فقال: ألا وقول الزور ..." الحديث.

فقد ذكر النبى ـ ﷺ ـ عددا من الكبائر، جعل فى مقدمتها الإشراك بالله، وهذا مما يشير إلى أنه رأس المحرمات وأعظم الذنوب وأفدحها.

---

(١) راجع الوصايا العشر ص٤١ للدكتور عبدالفتاح عاشور.
(٢) النساء / ٤٨ .
(٣) النساء / ١١٦ .
(٤) المائدة/ ٧٢ .

كما أن فى الشرك إفسادا للعقل والفطرة التى فطر الناس عليها، ومن ثم حرص السياق القرآنى فى مقدمة هذه الوصايا على تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد .

أضف ــ أعزك الله ــ إلى هذا، أن العقيدة هى القاعدة التى يقوم عليها بناء الدين؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات ... القاعدة التى يجب أن تقوم أولا قبل الدخول فى الأوامر والنواهى؛ وقبل الدخول فى التكاليف والفرائض، وقبل الدخول فى النظام والأوضاع؛ وقبل الدخول فى الشرائع والأحكام ...

يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده فى عقيدتهم ؛ لا يشركون معه أحدا فى ألوهيته، ولا يشركون معه أحدا فى ألوهيته، ولا يشركون معه أحدا فى ربوبيته كذلك يعترفون له وحده بأنه المتصرف فى شئون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف فى شؤون العباد فى عالم الحكم والشريعة كلها سواء ...

إن الشرك ــ فى كل صوره ــ هو المحرم الأول، لأنه يجر إلى كل محرم. وهو المنكر الأول الذى يجب حشد الإنكار كله له، حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، ولا رب لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله .

وإن التوحيد ــ على إطلاقه ــ لهو القاعدة الأولى التى لا يغنى غناءها شىء آخر، من عبادة أو خلق أو عمل ...

من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة[1]:﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

وقد اختلف النحاة فى تحديد معنى (أن) وفى تطبيق ما فى حيزها من النهى والأمر على قواعدهم، وقد اضطربوا فى هذا اضطرابا شديدا ، وتبعهم فى هذا المفسرون، وكنت قد عزمت على ألا أذكر كل ما قاله النحاة فى معنى (أن) وأننى سوف أقف مع المشهور من هذه الأقوال ، لكننى وفاء للنظم الكريم، وللعلماء الأجلاء سوف أذكرها بإيجاز، ثم أرجح ما أراه مناسبا للسياق والمقام.

فى (أن) أوجه:

أحدها: أن (أن) تفسيرية ــ بمعنى أى ــ ؛ لأنها تقدمها ما هو بمعنى القول لا حروفه، و(لا) حينئذ ناهية، و(تشركوا) مجزوم بها؛ وهذا وجه ظاهر، وهو اختيار كثير من المفسرين ، فإن قلت إذا جعلت (أن) مفسرة لفعل التلاوة وهو متعلق بما حرم ربكم وجب أن يكون ما بعده منهيا عنه محرما كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهى فما تصنع بالأوامر؟

قلت: أجاب الزمخشرى بقوله : ... لما وردت هذه الأوامر مع النواهى وتقدمهن جميعا فعل التحريم واشتركن فى الدخول تحت حكمه، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها، وهى الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل فى القول ونكث العهد[2].

وذهب أبوحيان ــ رحمه الله ــ إلى أن عطف هذه الأوامر يحتمل وجهين:

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٨ صـ١٢٢٩ .

(٢) الكشاف جـ٢ صـ٤٨ .

أحدهما: أنها ليست معطوفة على المناهي قبلها لئلا يلزم انسحاب التحريم عليها حيث كانت في حيز (أن) التفسيرية، بل هي معطوفة على قوله ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ أمرهم أولا بأمر يترتب عليه ذكر مناه ثم أمرهم ثانيا بأوامر. وهذا معنى واضح.

والثاني: أن تكون الأوامر معطوفة على المناهي وداخلة تحت (أن) التفسيرية، ويصح ذلك على تقدير محذوف تكون (أن) مفسرة له وللمنطوق قبله الذي دل على حذفه، والتقدير: وما أمركم به فحذف وما أمركم به لدلالة ما حرم عليه؛ لأن معنى ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ما نهاكم ربكم عنه، فالمعنى قل تعالوا أتل ما نهاكم ربكم عنه وما أمركم به، وإذا كان التقدير هكذا صح أن تكون (أن) تفسيرية لفعل النهي الدال عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف.

ألا ترى أنه يجوز أن تقول أمرتك أن لا تكرم جاهلا وأكرم عالما؛ إذ يجوز عطف الأمر على النهي والنهي على الأمر كما قال امرؤ القيس:

يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ـ قال أبوحيان ـ وهذا لا نعلم فيه خلافا بخلاف الجمل المتباينة بالخبر والاستفهام والإنشاء، فإن في جواز العطف فيها خلافا[1] أهـ.

الوجه الثاني: أن تكون (أن) ناصبة للفعل بعدها، وهي وما في حيزها في محل نصب بدلا من "ما حرم".

الوجه الثالث: أنها الناصبة أيضا، وهي وما في حيزها بدل من العائد المحذوف؛ إذ التقدير ما حرمه. وهذا في المعنى كالذي قبله

(١) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٠، والنهر الماد من البحر المحيط جـ١ صـ٧٦٦.

و(لا) على هذين الوجهين زائدة. لئلا يفسد المعنى كزيادتها فى قوله تعالى: ﴿أن لا تسجد﴾ ، و﴿لئلا يعلم﴾ .

فإن قلت فما تصنع بقوله: ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه﴾ فيمن قرأ بالفتح ، وإنما يستقيم عطفه على "أن لا تشركوا" إذا جعلت "أن" هى الناصبة حتى يكون المعنى أتل عليكم نفى الإشراك وأتل عليكم أن هذا صراطى مستقيما. قلت ــ والكلام للزمخشرى ــ أجعل قوله: "وأن هذا صراطى مستقيما" علة للاتباع بتقدير اللام كقوله : ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ بمعنى ولأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه، والدليل عليه القراءة بالكسر كأنه قيل: واتبعوا صراطى لأنه مستقيم أو اتبعوا صراطى أنه مستقيم[1] .

الوجه الرابع: أن تكون "أن" الناصبة وما فى حيزها منصوب على الإغراء بعليكم ويكون الكلام قد تم عند قوله "ربكم"، ثم ابتدأ فقال: ﴿عليكم أن لا تشركوا﴾ أى الزموا نفى الإشراك وعدمه وهذا ــ وإن كان ذكره جماعة كما نقله ابن الأنبارى ــ ضعيف لتفكيك التركيب عن ظاهره؛ ولأنه لا يتبادر إلى الذهن.

الوجه الخامس: أنها وما فى حيزها فى محل نصب أو جر على حذف لام العلة، والتقدير: أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا ، وهذا منقول عن أبى إسحاق.

الوجه السادس: أن تكون هى وما بعدها فى محل نصب بإضمار فعل تقديره: أوصيكم أن لا تشركوا؛ لأن قوله : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ محمول على أوصيكم بالوالدين. وهذا مذهب أبى إسحاق أيضا.

الوجه السابع: أن تكون "أن" وما فى حيزها فى محل رفع، على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أى المحرم[2] أن لا تشركوا، وهذا يحوج إلى زيادة (لا)، لئلا يفسد المعنى.

---

(١) الكشاف جـ٢ صـ٤٨ .

(٢) أو المتلو أو هو .

الوجه الثامن: أنها فى محل رفع أيضا على الابتداء،والخبر الجار قبله، والتقدير: عليكم عدم الإشراك ، ويكون الوقف على قوله (ربكم) كما تقدم فى وجه الإغراء، وهو مذهب أبىبكر ابن الأنبارى؛ فإنه قال: ويجوز أن تكون فى موضع رفع "بعليكم" كما تقول: عليكم الصيام والحج.

الوجه التاسع: أن تكون فى موضع رفع بالفاعلية بالجار قبلها وهو ظاهر قول ابن الأنبارى المتقدم والتقدير: استقر عليكم عدم الإشراك[1].أهـ.

هذه هى الأقوال التى ذكرها علماؤنا الأجلاء فى توجيه معنى (أن) فى قوله تعالى: ﴿ألا تشركوا﴾ وذلك حتى تتجاوب أجزاء النظم الكريم، وهى ليست متساوية فى القوة والضعف؛ بل هى متفاوتة؛ إذ رجح كثير من العلماء القول الأول لأمور من جملتها، أن فى إخراج المفسر على صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم.

كما رجح جمع من العلماء القول السادس الذى يقضى بتقدير فعل محذوف تقديره أوصيكم، وذلك لأن فى النظم ما يدل عليه ــ وهو قوله فى التذييل : ﴿ذلكم وصاكم به﴾ ــ كما أن قوله وبالوالدين إحسانا محمول على أوصيكم بالوالدين.

وقوله: "شيئا" مفعول به أو مصدر؛ أى لا تشركوا به شيئا من الأشياء أو شيئا من الإشراك[2]، وهو مؤكد للنهى عن الشرك بالله؛ لأن التنكير فيه للعموم، وكأن المعنى : وأوصاكم ألا تشركوا بالله شيئا من الأشياء ، وإن كانت عظيمة فى الخلق كالشمس والقمر

---

(١) راجع الكشاف جـ٢ صـ٨، الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٤، والبحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٠، وتفسير أبىالسعود جـ٢ صـ٢١٩، وروح المعانى جـ٨ صـ٥٨ .

(٢) راجع أبا السعود جـ٢ صـ٢١٩، وفتح القدير جـ٢ صـ٢٥٠

والكواكب، أو عظيمة فى القدر كالملائكة والأنبياء والصالحين، فإن عظمتها لا تخرجها عن كونها مخلوقة لله، مسخرة له بقدرته وإرادته.

وصدق الله فقد قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (١).

أو أن المعنى : أن لا تشركوا به شيئا من الشرك صغيره أو كبيره.

وهذا النهى الذى تضمنته هذه الوصية يلزمه الحث على عبادة الله وحده، وهذا هو المقصود بالذات الذى دعا إليه جميع الرسل، وهو لازم للنهى عن الشرك الذى عبر به هنا؛ لأن الخطاب موجه للمشركين أولا(٢).

الوصية الثانية: الإحسان بالوالدين:

والوصية الثانية من الوصايا العشر، هى الإحسان بالوالدين، وهى التى تضمنها قوله ــ جل وعلا ــ : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ وقبل أن نقف مع طريقة القرآن فى عرضه لهذه الوصية، نقف أولا مع معنى الإحسان المأمور به فى حق الوالدين، كما نحاول أن نظهر سر مجيئها بعد النهى عن الشرك بالله.

الإحسان هو: أرقى درجات التعامل ، سواء أكان ذلك مع الله سبحانه أم مع البشر ، وهو يعنى مع الوالدين، "برهما، وحفظهما، وصيانتهما، وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما"(٣).

---

(١) الآية من سورة مريم/ ٩٣، وراجع تفسير المنار جـ٨ صـ١٨٨، وتفسير المراغى جـ٧ صـ٦٦، والتفسير المنير جـ٧ صـ٦٤

(٢) راجع المنار جـ٨ صـ١٨٨ .

(٣) القرطبى جـ٧ صـ١٣٢ .

كما يعني أن يبذل الولد لهما كل خير، وأن يتعامل معهما باللطف ولين الجانب ؛ فلا يغلظ لهما في الجواب، ولا يحد النظر إليهما، ولا يرفع صوته عليهما، بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي سيده تذللا لهما[1].

وبالجملة يعني المعاملة الكريمة معهما في أرقى درجاتها وأحسن أحوالها، وينبغي أن تكون هذه المعاملة صادرة من القلب، ونابعة من المحبة والعطف والتكريم، وليست من الخوف والرهبة ؛ لأن في ذلك مفسدة كبيرة في تربية الأولاد في الصغر ؛ إذ فيه إلجاء لهم إلى العقوق في الكبر ، وإلى ظلم الأولاد لهم كما ظلمهم آباؤهم؛ فكما يفعل الولد مع والديه يفعل أولاده معه ولو بعد حين، قال الصادق المصدوق ﷺ : "بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا تعف نساؤكم"[2].

وقد جاءت هذه الوصية بعد النهي عن الشرك بالله ــ جل وعلا ــ ؛ لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله سبحانه؛ إذ هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، وخلقه، وأوجده بعد أن لم يكن شيئا، ثم تأتي بعد نعمة الله نعمة الوالدين؛ لأنهما السبب في وجود الإنسان، كما أن لهما عليه من الحقوق ما لهما؛ إذ لهما حق التربية، والشفقة، والحفظ من المهالك في حال الصغر، والنصيحة الصادقة، والحب الخالص في حال الكبر .

ولما كانت نعم الوالدين تالية لنعم الله سبحانه في الرتبة ــ أمر بالإحسان إليهما بعد الأمر بعبادته ــ عزوجل ــ، وهذا يدل على عظم حق الوالدين، كما يدل على عظيم اهتمام الشارع بأمر الوالدين، وكفى دلالة على هذا ، أن الحق سبحانه قرن الأمر بالإحسان إليهما

(١) روح المعاني جـ٨ صـ٥٤ .
(٢) تفسير المنار جـ٨ صـ١٨٦، والمراغي جـ٧ صـ٦٧ .

بالأمر بعبادته، وجعله ثانيها فى الوصايا العشر، وأكده بما أكده بـه فى سورة الإسراء حيث قال سبحانه : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1]، كما قرن شكرهما بشكره فى سورة لقمان فى قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾[2]؛ ولذا كان عقوق الوالدين من الكبائر، وبرهما والإحسان إليهما من أفضل الأعمال، روى البخارى ومسلم عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها. قلت: ثم أى؟ قال : بر الوالدين، قلت: ثم أى؟ قال الجهاد فى سبيل الله»[3].

وقوله: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ معطوف على قوله : ﴿أن لا تشركوا به شيئا﴾ يوصى فيه الحق ــ جل وعلا ــ الأبناء أن يحسنوا إلى الوالدين إحسانا تاما كاملا لا يدخرون فيه وسعا، وقد جاء هذا الإيصاء بصورة مؤكدة مبالغ فيها، وقد أفاد هذا التأكيد وتلك المبالغة ثلاثة روافد.

الرافد الأول: التعبير بالمصدر فى قوله : "إحسانا" فهو يفيد التأكيد والمبالغة فى الحث على الإحسان إلى الوالدين.

---

(١) الإسراء ٢٣، ٢٤ .

(٢) سورة لقمان/ ١٤ ــ ١٥ .

(٣) راجع: مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٠، المنار جـ٨ صـ١٨٤ وما بعدها.

أما التأكيد فإنه ينبع من تعلق المصدر بمضمر يقدر إما بقولنا: وأحسنوا بالوالدين إحسانا، فيكون أسلوبا إنشائيا لفظا ومعنى.

وإما بقولنا: وتحسنون بالوالدين إحسانا. فيكون أسلوبا خبريا لفظا إنشائيا معنى[1].

وعلى كلا التقديرين فالجار والمجرور "بالوالدين" متعلقان بفعل المصدر المحذوف ــ وهو أحسنوا أو تحسنون ــ ، و"إحسانا" مفعول مطلق للفعل المحذوف[2]، وهو يفيد التأكيد؛ لأنه كأنه أمر بالإحسان إلى الوالدين مرتين، مرة بالفعل المحذوف، ومرة بالمصدر، فهو بمثابة تكرير الفعل.

وأما المبالغة فإنها تنبع من الإتيان بالمصدر منكرا، فكأنه قال: أحسنوا بهما الإحسان العظيم الكامل الذى لا تدخرون فيه جهدا ووسعا.

وجوز جمع من العلماء أن يكون المصدر "إحسانا" نائبا عن فعله أى وأحسنوا بالوالدين إحسانا.

الرافد الثانى: إخراج النهى فى صورة الأمر:

الحق جل وعلا أمر بالإحسان إلى الوالدين فى هذه الوصية، والأمر بالإحسان إليهما يفيد النهى عن ضده،وهو الإساءة إليهما،وبذلك الاعتبار وقع هنا فى عداد ما حرم الله، فكأنه قيل:أتل ما حرم ربكم أن لا تشركوا ولا تسيئوا إلى الوالدين،غير أنه أخرج مخرج الأمر بالإحسان إليهما؛ لأن الأمر بالشىء يستلزم النهى عن ضده، بل هو عينه عند البعض،وعطف الأوامر على النواهى الواقعة

---

(١) وقدره بعضهم من غير لفظه أى وأوصاكم بالوالدين إحسانا، ويؤيد هذا أن فى حرم معنى أوصى بتحريمه وأمر بتجنبه. راجع مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٠، وزاد المسير جـ٣ صـ١٠٠، وتفسير الخازن جـ٢ صـ٩٩ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه جـ٣ صـ٢٦٨ لمحى الدين الدرويش .

بعد (أن) المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرما دليل واضح على أن التحريم راجع إلى الأضداد على الوجه المذكور(١).

وإنما وضع الأمر بالإحسان إليهما موضع النهى عن الإساءة إليهما للمبالغة فى إيجاب مراعاة حقوقهما، وللدلالة على أن مجرد ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف فى قضاء حقوقهما بخلاف غيرهما.

وكأن فى هذا إيذانا بأن الإساءة إلى الوالدين، ليس من شأنها أن تقع فيحتاج إلى التصريح بالنهى عنها فى مقام الإيجاز؛ لأنها خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة والآداب المرعية عند جميع الأمم(٢).

وفى هذا تعريض شديد ولاذع بمن قصر فى بر والديه والإحسان بهما ؛ فهو فاسد الفطرة مضياع للحقوق كلها، لا يرجى منه خير لأحد.

وعلى الجملة فإن إخراج النهى عن الإساءة للوالدين فى صورة الأمر بالإحسان إليهما فيه تأكيد على وجوب الإحسان إليهما، ومبالغة فى تحريم الإساءة إليهما وإن صغرت ، فما بالك بالعقوق الذى هو من أكبر الكبائر وأعظم الآثام؟!!

الرافد الثالث: وهو التعدية بالباء:

والرافد الثالث من روافد المبالغة والتأكيد فى هذه الوصية، هو التعدية بالباء؛ لأن الإحسان الذى هو الإنعام على الغير يتعدى بالباء وإلى، فيقال أحسن إلى فلان، وأحسن بفلان، وفى التنزيل يقول الله

---

(١) راجع الكشاف جـ٢ صـ٤٨، والتحرير والتنوير جـ٨ صـ١٥٨، وتفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨١، تفسير المراغى جـ٧ صـ٦٧، وتفسير روح البيان جـ٣ صـ١١٧ .

(٢) تفسير المنار جـ٨ صـ١٨٤ .

ـ تعالى ـ على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ (١)، ويقول على لسان قوم قارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (٢).

وكلام اللسان يشعر بأن اللام أصل والباء فرع أى معدول إليها؛ لأنه يرد الباء إلى اللام، يقول فى آية يوسف السابقة، "أى قد أحسن إلى، والعرب تقول: أحسنت بفلان وأسأت بفلان، أى أحسنت إليه وأسأت إليه، وتقول: أحسن بنا أى أحسن إلينا ولا تسىء بنا..." (٣).

ومن ثم فقد ذهب المدققون إلى أن التعدية بالباء أبلغ ـ من المبالغة ـ من التعدية باللام ؛ ولذا فهى بالوالدين وذى القربى أليق؛ لأن من أحسنت به هو من يتصل به برك وحسن معاملتك، ويلتصق به مباشرة على مقربة منك وعدم انفصال عنك، وأما من أحسنت إليه فهو الذى تسدى إليه برك ولو على بعد أو بالواسطة؛ إذ هو شىء يساق إليه سوقا.

ولذلك فلم ترد هذه التعدية ـ أعنى بالباء ـ فى التنزيل إلا فى تعبيرين فى مقامين:

أحدهما: التعبير بالفعل حكاية عن يوسف ـ عليه السلام ـ فى سورته وهو قوله لأبيه وأخوته : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ (٤).

والثانى: التعبير بالمصدر المفيد للتأكيد والمبالغة فى مقام الإحسان بالوالدين فى أربع سور من القرآن الكريم، وهى سور:

---

(١) يوسف/ ١٠٠ .
(٢) القصص/ ٧٧ .
(٣) اللسان : مادة حسن.
(٤) سورة يوسف / ١٠٠ .

البقرة، والنساء ــ وقد عطف فيهما ذو القربى على الوالدين بالتبع ــ والأنعام ــ والإسراء، ويضاف إلى هذه المواقع ، قوله تعالى فى سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ (١)، كما قرأه الكوفيون من السبعة وقرأه الباقون ﴿حسنا﴾ كآية سورة العنكبوت(٢) التى رويت كلمة "إحسانا" فيها من الشواذ، والظاهر أن الباء فيهما متعلقة بوصينا(٣).

وبهذا العرض ندرك أن قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ قد تعددت فيه روافد المبالغة والتوكيد بما يجعلنا نقرر أنه لو لم يرد فى التنزيل إلا هذا القول ولو غير مكرر، لكفى فى الدلالة على عظم عناية القرآن واهتمامه بشأن الوالدين، وذلك من خلال ما تدل عليه الصيغة والتعدية، وسوقه مقترنا بعبادته سبحانه، وجعله ثانى هذه الوصايا، فكيف وقد أكده الحق جل وعلا فى القرآن أكثر من مرة ، ثم جاءت السنة النبوية واحتفلت بالوالدين احتفالا باهرا.

ولعل السر فى الاهتمام بالوالدين، أن كثيرا من العرب كانوا فى جاهليتهم أهل جلافة، فكان الأولاد لا يوقرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر، فلذلك كثرت وصايا القرآن بالإحسان بالوالدين بأسلوب مؤكد، يتمتع بالإيجاز والتركيز الشديد .

الوصية الثالثة: النهى عن قتل الأولاد:

وقد تضمن هذه الوصية، قول الله ــ جل وعلا ــ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (٤) ، وفيها ينهى

(١) سورة الأحقاف / ١٥ .
(٢) وهى : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ العنكبوت / ٨ .
(٣) راجع تفسير المنار جـ٨ صـ١٨٥ وما بعدها .
(٤) الأنعام/ ١٥١ .

الحق ــ سبحانه ــ الآباء عن قتل أولادهم من أجل الفقر؛ لأنه ــ عز اسمه ــ تكفل برزق الآباء والأبناء جميعا، ومــا دام الله قــد تكفــل بالرزق فعلى الآباء التوكل عليه، والقيام بتربية أولادهم دون قتلهم .

والسبب فى هذا النهى أن العرب كانت تفعــل ذلــك بالــذكور والإناث من الفقر أو من خشية الفقر، وتفعله بالإناث خاصة خشــية العار[1]، قال إسحاق بن خلف، وهو شاعر إسلامى قديم:

إذا تــذكرت بنتــى حــين تنــدبنى ∴ فاضت لعــبرة بنتــى عبرتــى بــدم
أحــاذر الفقــر يومــا أن يلــم بهــا ∴ فيهتك الستر عن لحــم علــى وخــم
تهوى حيــاتى وأهــوى موتهــا شــفقا ∴ والمــوت أكــرم نــزال علــى الحــرم
أخشــى فظاظــة عــم أو جفــاء أخ ∴ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم[2]

لذا فقد نهاهم الله عن ذلك، مع ذكر السبب الذى كانوا من أجله يقتلون أولادهم، وأخبر أنه رازقهم ورازق أولادهم، وفى هذا تحــذير للمسلمين من الوقوع فيه .

وإنما حرم الحق ــ جل وعلا ــ قتل الأولاد ، لما فيه من هدم بنيان الله ــ وملعون من هدم بنيانه ــ وفيه إبطال ثمــرة شــجرته ومحصوده وقطع نسله، كما أن فيه ترك التوكل فى أمر الرزق، وهو يؤدى إلى تكذيب الله تعالى؛ لأنه قــال : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [3].

ومناسبة هذه الوصية للوصية الســابقة أن الله تعــالى، لمــا أوصى بالوالدين والأجداد ، عطف على ذلك النهى عن الإساءة إلــى الأبناء والأحفاد ، وقد نبه على أعظم الإساءة إلــيهم وهــو إعــدام حياتهم بالقتل خوف الفقر[4] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٥٣، والقرطبى جـ٧ صـ١٣٢، الخازن جـ٢ صـ١٩٩ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٥٨ وما بعدها.
(٣) روح البيان جـ٣ صـ١١٧، والآية رقم ٦ من سورة هود.
(٤) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٥، والبحر المحيط جـ٤ صـ٧٦٨، وفتح القدير جـ٢ صـ٢٥٠ .

وفى هذا إيماء إلى ضرورة الحفاظ على النوع الإنسانى بتحريم إيذاء الأصول (الآباء) والفروع (الأبناء) ورعاية كل منهما، ثم تحريم قتل النفس الإنسانية مطلقا المنصوص عليه فى الوصية الخامسة[1].

واللافت للنظر أن الله ـ جل وعلا ـ قد ربط هذه الوصايا ـ أعنى الوصية بالآباء . والأبناء ، والنفس ـ بمعرفة ألوهيته الواحدة، والارتباط بربوبيته المتفردة، ثم إنه ـ سبحانه ـ قال لهم: إنه هو الذى يكفل لهم الرزق، حتى لا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرهما وضعفهما، ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم وصغرهم، ولا يخافوا الفقر والحاجة، فالله يرزقهم جميعا؛ لأنه تكفل برزق العباد[2].

وتكاد تجمع كتب التفسير على أن المراد بالقتل المنهى عنه فى هذه الوصية، هو وأد البنات، وهن أحياء؛ إذ كانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية، فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم .

والمراد بالأولاد حينئذ خصوص البنات؛ لأنهن اللاتى كانوا يقتلونهن وأدا، وقد عبر عنهن بلفظ الأولاد فى هذه الآية ونظائرها لأن البنت يقال لها: ولد، وجرى الضمير على اعتبار اللفظ فى قولهم : "نرزقهم"[3].

وقد أشار القرطبى، وابن كثير، والشوكانى ـ رحمهم الله ـ إلى أنه ربما قتلت العرب بعض الذكور خشية الافتقار[4] ـ وظاهر الآية يؤيده ـ وحينئذ فالمراد بالأولاد: الذكور والإناث. وفى التعبير بأولادكم ترقيق لقلوب الآباء، وإثارة لمكامن العطف نحو الأبناء، حتى لا يرتكبوا هذا الفعل الشنيع معهم .

---

(١) التفسير المنير جـ٧ صـ٩٦ .
(٢) راجع فى ظلال القرآن جـ٣ صـ١٢٣٠ .
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٨٩ .
(٤) راجع القرطبى جـ٧ صـ١٣٢، وابن كثير جـ٢ صـ٢٥٣، وفتح القدير جـ٢ صـ٢٥٠ .

و(من) فى قوله : ﴿من إملاق﴾ سببية، متعلقة بالفعل المنهى عنه، أى لا تقتلوا أولادكم لأجل الإملاق.

والإملاق: هو الفقر ... وقيل: الجوع، وقيل: الإسراف، وقيل: الإنفاق ... وقيل: الفساد، وأظهرها وأنسبها لسياق الآية الفقر، وهو الذى أطبق عليه أئمة اللغة وأئمة التفسير هاهنا، وأملق يكون لازما ومتعديا، يقال: أملق الرجل إذا افتقر، فهذا لازم، وأملق ما عنده الدهر أى أفسده[1].

وقوله عز اسمه هنا : ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ ــ وكذا ﴿خشية إملاق﴾ فى الإسراء، قد خرج على العادة[2]، وإلا فقتل الأولاد محرم ــ خشى الفقر أم لا ــ قد تظاهرت الأدلة على تحريمه.

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهى وإبطال سببية ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه، وضمان منه تعالى لأرزاقهم، أى نحن نرزق الفريقين، لا أنتم فلا تقدموا على ما نهيتم عنه لذلك[3].

فهذه الجملة قد فصلت عن الجملة السابقة؛ لأن الجملة السابقة قد أثارت سؤالا، كانت الثانية جواب عنه، ومن ثم فصلت الثانية كما يفصل الجواب عن السؤال ، ويسمى هذا استئنافا، وهو ما يطلق عليه البلاغيون "شبه كمال الاتصال".

وهذا السؤال الذى أثارته الجملة الأولى عن السبب الخاص للحكم؛ لأن الله جل وعلا حينما قال : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ ، فقد أثارت هذه الجملة سؤالا مؤداه: هل تتولى رزقهم؟!

---

(١) اللسان : ملق .
(٢) تفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨٢ .
(٣) راجع تفسير أبى السعود جـ٢ صـ٢٢٠ .

فكان الجواب على ما علمت من الآية الكريمة: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وهو علة للنهى عن قتلهم، وإبطال لمعذرتهم؛ لأن الفقر قد جعلوه عذرا لقتل الأولاد، ومع كون الفقر لا يصلح أن يكون داعيا لقتل النفس، فقد بين الله أنه لما خلق الأولاد فقد قدر رزقهم، فمن الحماقة أن يظن الأب أن عجزه عن رزقهم يخوله قتلهم، وكان الأجدر به أن يكتسب لهم[1].

ولكون هذه الجملة علة للنهى عن قتل الأولاد مع وجود مسوغ القتل ــ حسب عادتهم ــ وهو الفقر ــ فقد جاءت زاخرة بالخصوصيات الأسلوبية، مفعمة بالأسرار البلاغية ، وأساليب التوكيد، وأول ما يلفتك فى هذه الجملة، أن الحق ــ جل وعلا ــ قد عدل عن طريق الغيبة الذى جرى عليه الكلام من قوله : ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ إلى طريق التكلم بضمير : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ ، وفى هذا تذكير بالذى أمر بهذا القول كله، حتى كأن الله أقحم كلامه بنفسه فى أثناء كلام رسوله الذى أمره به: فكلم الناس بنفسه، وفى هذا ــ أيضا ــ تأكيد لتصديق الرسول ﷺ ؟[2] .

كما أن فيه ضمانا منه ــ سبحانه ــ بما سيأتى بعده، وهو رزقهم، وكأن الله ــ تعالى ــ يقول لهم: لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر، فإنى رازقكم وإياهم، فهو سبحانه قد ضمن رزقهم وتكفل به، وفى هذا ما يدعوهم إلى الامتناع عن تلك الجريمة الشنيعة والفعلة البشعة.

وتأمل تقديم المسند إليه:"نحن"على خبره الجملة الفعلية: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ، وهو لإفادة الاختصاص، وكأن الله يقول: نحن

(١) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٥٨ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٥٨ .

نرزقكم وإياهم لا أنتم ترزقون أنفسكم ولا ترزقون أبناءكم. فقد قصر رزقهم ورزق أبنائهم على نفسه، دون الآباء ، قصر صفة على موصوف قصرا إضافيا؛ لأن المنفى مخصوص.

ومن دلالات أسلوب القصر التى لا تتخلف عنه التأكيد والإيجاز، لأنه ــ كما يقول البلاغيون ــ فى قوة جملتين: إحداهما مثبتة، والأخرى منفية، والقصر بدلالته هذه يناسب مقام الوعد والضمان غاية المناسبة، كما أن اختيار طريق تقديم المسند إليه على خبره الجملة الفعلية، مناسب هو الآخر للمقام تمام المناسبة.

ثم تأمل مرة أخرى تقديم ضمير المخاطبين ــ وهم الآباء ــ على ضمير الأبناء وكان ظاهر السياق يقتضى أن يقدم ضمير الأبناء، فيقال: نحن نرزقهم وإياكم ــ كما فى آية الإسراء، لأن الكلام فى الأولاد.

وقبل أن نقف على سر تقديم خطاب الآباء هنا ــ أعنى فى الأنعام ــ نستحضر السياقين ــ أعنى سياق الأنعام وسياق الإسراء ــ أولا، ثم نقف على فروق النظم فى السياقين، ومن خلال وقوفنا على تلك الفروق يتجسد لنا الإعجاز القرآنى الأخاذ، وساعتها لا نملك إلا نقول بصوت عال يملأ الأفق: سبحان من أنزله !!!

وإليك السياقين، فأما سياق الأنعام، فهو قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (١) .

وأما سياق الإسراء ، فهو قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (٢).

(١) الأنعام/ ١٥١ .
(٢) الإسراء / ٣١ .

ومن خلال إمعان النظر فى الآيتين، ندرك أن بينهما فرقا فى النظم من وجهين:

الأول: أن تعليل النهى عن قتل الأولاد فى الإسراء يختلف عن الأنعام ؛ إذ هو فى الإسراء : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، وفى الأنعام: ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾، ويقتضى ذلك أن الذين كانوا يئدون بناتهم، يئدونهن لغرضين:

إما لأنهم فقراء لا يستطيعون الإنفاق على البنات، وهذا هو مورد قوله فى الأنعام : ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ ، فإن (من) التعليلية تقتضى أن الإملاق سبب قتلهن كما تقتضى وجوده حين القتل.

وإما أن يكون الحامل على ذلك ليس فقر الأب ولكن خشية عروض الفقر له أو عروض الفقر للبنت بموت أبيها؛ إذ كانوا فى جاهليتهم لا يورثون البنات، فيكون الدافع للوأد حينئذ هو توقع الإملاق.

الوجه الثانى: وهو مترتب على الوجه الأول، ذلك أن الله تعالى، قال فى الأنعام : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد، لأن الإملاق الدافع للوأد المحكى به فى آية الأنعام، هو إملاء الآباء، فبدئ أولا بالعدة برزق الآباء بشارة لهم بزوال ما هم فيه من الإملاق ، وكمل بأنه رازق بناتهم.

وأما آية الإسراء فظاهرها أنهم موسرون، وإنما يخشون حصول الفقر، ولذلك قال : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، وإنما تخشى الأمور المتوقعة، فلذلك قدم الإعلام بأن الله رازق الأبناء والمتكفل بهم، وكمل بأنه رازق آبائهم وهذا من نكت القرآن العظيمة، وسبحان العليم بأسرار كتابه.

وبناء على هذا فقد أفادت الآيتان معنيين: أحدهما: أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم.

والآخر: أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق، وخشيته، وحمل الآيتين على ما يفيد معنيين أولى من ادعاء كونهما بمعنى واحد للتأكيد، وأن التغاير بينهما إنما هو من التفنن فى التعبير أو البلاغة[1]؛ إذ لا يجوز لنا أن نحمل كلمة واحدة جاءت فى كلام الله على سبيل التوسع فى التعبير أو التفنن فيه؛ لأن حروفه ـ قبل كلماته ـ قد وضعت وضعا معجزا، لا يطيقه البشر، مهما أوتوا من فصاحة وبلاغة.

وفى جملة : ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ـ فى سورة الإسراء ـ تأكيد للنهى وتحذير من الوقوع فى المنهى عنه، كما أن فى فعل "كان" تأكيدا للجملة، وإشعارا بأن كونه إثما أمرا استقر وثبت.

الوصية الرابعة: النهى عن قربان الفواحش:

وقد جاءت هذه الوصية فى قول الله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [2]، وفيها ينهى الحق سبحانه عن قربان ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ـ كالزنا ، واللواط ، وقذف المحصنات ـ على أية كيفية كانت المعصية، وقد جاء التعبير القرآنى فى ذروة البلاغة وقمتها، تعاونت فيه الدقائق التعبيرية على أداء المعنى المراد، حتى تربع على عرش البلاغة، واستولى على قلوب المخاطبين.

---

(١) راجع البحر المحيط جـ٤ صـ٧٦٨، والنهر المـاد جـ١ صـ٧٦٨، والفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٨، والتحرير والتنوير جـ١٥ صـ٨٧ وما بعدها .

(٢) الأنعام/ ١٥١ .

ونحاول ــ بقدر الجهد ــ أن نقف على بعض اللمحات الإعجازية فى تلك الوصية مستأنسين بأقوال سلف الأمة وعدولها من اللغويين والمفسرين.

الفواحش:جمع فاحشة، وهى اسم لكل ما اشتد قبحه وشناعته من القول والفعل، والفرق بين الفاحش والقبيح، أن القبيح يطلق على الصغير والكبير، وليس كذلك الفاحش؛ لأنه يقال القرد قبيح الصورة، ولا يقال فاحش الصورة،وضد القبيح الحسن،وليس كذلك الفاحش[1].

والإثم أعم من الفاحشة؛لأنه يشمل كل ضار من الصغائر والكبائر فخشى قبحه أم لا، ولذلك قال تعالى ــ فى صفة المحسنين من سورة النجم ــ:﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[2] وقال فى آية الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] قيل إن الآية جمعت أصول المحرمات الكلية، وهى على الترقى فى قبحها[4].

وقد جاء فى القرآن الكريم من هذه المادة، كلمات: الفحشاء ــ فى سبعة مواطن ــ وفاحشة ــ فى ثلاثة عشر موطنا ــ والفواحش ــفى أربعة مواطن ــ ،وقد دلت على عدة معان ، منها:

الشرك فى قوله ــ تعالى ــ فى سورة الأعراف : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾[5] .

---

(١) مجمع البيان للطبرسى جـ٧ صـ٢٢٩ .
(٢) سورة النجم / ٣٢ .
(٣) الأعراف / ٣٣ .
(٤) مفردات القرآن للراغب مادة : فحش.
(٥) الأعراف / ٢٨ .

ومنها الزنا فى قوله ــ تعالى ــ فى سورة النســاء : ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ (١)، وقوله فى الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (٢) ، وقوله فى الإسراء : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (٣)، وقولــه فــى الأحزاب : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (٤).

ومنها اللواط فى قوله ــ عزوجل ــ فى العنكبــوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٥) فهى هنا إتيان الرجال فى أدبارهم، ونظيرها فى النمــل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٦).

ومنها النشوز من المرأة، فذلك قوله ــ تعالى ــ فى النســاء: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (٧) فالمراد هنا النشوز من المرأة على زوجها.

ومنها زواج امرأة الأب: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾(٨).

---

(١) النساء / ١٥ .
(٢) الأعراف/ ٣٣ .
(٣) الإسراء/ ٣٢ .
(٤) الأحزاب / ٣٠ .
(٥) العنكبوت/ ٢٨ .
(٦) النمل/ ٥٤ .
(٧) النساء/ ١٩ .
(٨) النساء/ ٢٢ .

ومنها البخل فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [1] ومنها المعاصى كلها فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [2] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [3].

وبناء على هذا فإن الاستعمال القرآنى لكلمات الفاحشة، والفحشاء والفواحش، يجعلنا نقرر أنها ليست خاصة بالزنا؛ وإنما أطلقت على عدة أمور تتضمن أقوالا وأفعالا، تناهت فى القبح والشناعة، وإن كان قد أريد منها الزنا فى بعض إطلاقاتها؛ نظرا لشدة قبحه واستهجان النفوس له ، وليس هذا لأنها خاصة به .

ومن ثم فإن للمفسرين فى تفسير الفواحش التى معنا فى وصية الأنعام مذهبين:

الأول: أنها عامة تعم كل المعاصى سواء منها ما كان من أعمال الجوارح أم الباطن أم القلب، وقد ذهب إلى ذلك جماعة من المفسرين، منهم الفخر الرازى، وأبوحيان، وغيرهما، قال الفخر: "والأولى أن لا تخصص هذا النهى بنوع معين، بل يجرى على عمومه فى جميع الفواحش ظاهرها وباطنها؛ لأن اللفظ عام، والمعنى الموجب لهذا النهى وهو: كونه فاحشة عام أيضا، ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصص على خلاف الدليل. وأيضا فإن السبب إذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم[4].

---

(١) البقرة/ ٢٦٨ .
(٢) العنكبوت/ ٤٥ .
(٣) النحل/ ٩٠ .
(٤) التفسير الكبير جـ١٣ صـ٢٤٥ .

وقال أبوحيان : "الأجود أن لا يخص الفواحش بنوع ما..."[1].

الثاني: أن تكون الفواحش خاصة بالزنا واللواط وما كان على شاكلته كقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونكاح أزواج الآباء.

وعلى هذا فالآية نظير قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [2] وقوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [3] إلا أنه جئ هنا بصيغة الجمع.

وإلى هذا ذهب جمع من المحققين منهم العلامة أبوالسعود، والألوسي والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم[4]، وإنما حملوه على الزنا دون بقية المحرمات،لأنهم رأوا أن هذا-أعنيحمل لفظ الفواحش على الزنا ـ هو الأوفق بنظم المتعاطفات؛ لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها فتكون هذه واحدة منها بعينها، وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال اليتيم فاحشة، والشرك بالله فاحشة الفواحش، فتخصص "الفواحش" هنا بفاحشة الزنا أولى بطبيعة السياق وأوفق.

ومما يؤيد ذلك ما ورد في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن"[5]، ويقول سعد بن عبادة فيما رواه الشيخان: لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مصفح .

---

(١) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٢، النهر الماد جـ١ صـ٧٦٨ .
(٢) سورة الأعراف/ ٣٣ .
(٣) الإسراء / ٣٢ .
(٤) تفسير أبيالسعود جـ٢ صـ٢٢٠، روح المعاني جـ٨ صـ٥٤، تفسير المنار جـ٨ صـ١٨٧، تفسير المراغي جـ٧ صـ٦٧ .
(٥) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ جـ٣ صـ١٢٩، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال: "أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير منى، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن"[1] فالمراد من الفواحش فى الحديثين الزنا.

ومما يؤيد ذلك ـ أيضا ـ أن العرب كانوا فى الجاهلية لا يرون بأسا فى الزنا سرا ويعدونه فى العلانية قبيحا، فحرم الله النوعين فى هذه الوصية . وهو المقصود من قوله : "ما ظهر منها وما بطن".

ووجه توسيط النهى عن الفواحش بهذا المعنى بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا ـ كما وقع فى سورة الإسراء ـ أن الفواحش بهذا المعنى مع كونها فى نفسها جناية عظيمة، فإنها فى حكم قتل الأولاد؛ لأن أولاد الزنا فى حكم الأموات.

أما القول الآخر الذى يحمل الفواحش على عموم المحرمات، فإنه لا يظهر وجه لتوسيط هذا النهى العام بين أفراده، ويكون توسيطه بين النهيين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه[2]، وإن حاول أبوحيان ـ رحمه الله ـ أن يوجد مناسبة بين النهى عن الفواحش ـ على حملها على العموم ـ وبين النهى عن قتل النفس فيما بعد، فقال: "وإنما جرد منها ـ أى من الفواحش ـ قتل النفس تعظيما لهذه الفاحشة واستهوالا لوقوعها، ولأنه لا يتأتى الاستثناء بقوله إلا بالحق إلا من القتل لا من عموم الفواحش"[3]؛ لأنه إن استطاع أن يوجد مناسبة بين هذا النهى وبين ما بعده، فما استطاع أن يوجد مناسبة بينه وبين ما قبله.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٥٣ ، وصحيح البخارى ـ كتاب النكاح ـ باب الغيرة جـ٣ صـ٢٦٤ .

(٢) أبوالسعود جـ٢ صـ٢٢٠ .

(٣) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٢ .

على أن حمل الفواحش على أن المراد منها الزنا،من باب المجاز المرسل الذى أطلق فيه العام على الخاص، وقد أفاد هذا المبالغة فى هذه الفاحشة التى ثبت قبحها وشناعتها شرعا وعقلا، والتى لا يرتكبها إلا المستولغ من الفساق، الذى لا يبالى ذما ولا عارا.

وقد جئ بصيغة الجمع (الفواحش) للمبالغة فى شناعة الزنا وفحشه، وبيان أن هذه الفاحشة ليست فاحشة واحدة، وإنما هى عدة فواحش.

ويجوز أن يحمل السر على أن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها، فالتبرج، والتهتك، والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات، والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزيين، والاستثارة ..... كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة.

كما يجوز أن يكون الجمع للقصد إلى النهى عن الأنواع؛ ولذا أبدل منها قوله سبحانه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم وما يفعل سرا باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم.

فنهى الله سبحانه عن الزنا فى الحالتين أو على أية حالة، ومن ثم جمع فقال"الفواحش"ليعم النهى كل هذه الحالات وما على شاكلتها.

كذلك يجوز أن يكون الجمع باعتبار تعدد من يصدر عنه هذه الفاحشة أو للقصد[1].

وقوله سبحانه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء، وهما بدل اشتمال من الفواحش، بينهما طباق.

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٦ ، روح البيان جـ٣ صـ١١٨، تفسير المراغى جـ٦صـ٧٨١، تفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨١ .

وقد أفاد البدل بما فيه من طباق عموم التحريم لجميع الكيفيات التى تكون عليها هذه الفاحشة الشنيعة ـ هذا على حمل الفواحش على الزنا ـ أعاننا الله والمسلمين منها ـ الظاهر منها والباطن، المستتر فى الضمير والبادى منها فى الجوارح، المخبوء المستور منها، والمعلن المكشوف!!

وكلها مما يحطم قوام الأسرة، وينخر فى جسم الجماعة، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد، ويحقر من اهتماماتهم، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد؛ لأن الله لما وصاهم بالأسرة ـ الوالدين والأولاد ـ وصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها ـ كما يقوم عليها المجتمع كله ـ وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها ... وهو نهى مرتبط بالوصية السابقة عليها ... وبالوصية الأولى التى تقوم عليها كافة الوصايا.

وذلك لأنه لا يمكن قيام أسرة، ولا استقامة مجتمع، فى وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لابد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة، وليقوم المجتمع، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع[1].

ومن ثم فإن جملة البدل ـ بما فيها من طباق ـ تحث على ترك هذه المعصية على أية حالة من حالاتها؛ وهذا أعم للفائدة، كما أن فى هذه الجملة تعريضا بأهل الجاهلية، الذين كانوا لا يرون بأسا فى الزنا سرا، فحرم الله هذه المعصية على كل جهاتها.

وأضاف الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ فى قوله تعالى: ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة أخرى، وهى : "أن الإنسان إذا احترز عن المعاصى فى الظاهر، ولم يحترز منها فى الباطن ، دل ذلك على أن

(١) راجع الظلال جـ٨ صـ١٢٣١ .

احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمر بـه أو نهـى عنه، ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم، ومن كان كـذلك استحق العقاب، ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا لأجـل خـوف الله وتعظيما لأمره استوجب رضوان الله وثوابه"[1].

وكلام الفخر يؤيد ما ذكرته سابقا من أن جملة البدل تعـرض بأهل الجاهلية إلا أن الفخر جعلها تعريضا بكل من يمتنع عنهـا فـى الظاهر ويرتكبها فى الخفاء، وإشعارا بأنه لا يمتنع عنها فى الظـاهر مراقبة لله ــ جل وعلا ــ ، ولكن خوفا من رؤية الناس ومذمتهم.

وما ذهب إليه الفخر أعم فائدة؛ لأن التعريض بالجاهليين يدخل فيه دخولا أوليا ثم يتجاوز ذلك إلى التعريض بكل من يعصى الله فـى الخفاء ، ويمتنع عن ذلك فى الظاهر.

وهذا التوجيه لهذه الجملة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بناء علـى أن المراد من الفواحش الزنا، أما إن حملت الفواحش على العمـوم، وأريد منها المعاصى كلها، فإن جملة البدل حينئـذ تسـتوفى أقسـام المعاصى كلها؛ لأن ما ظهر منها هو أفعال الجوارح ، وما بطن هـو اعتقاد القلوب[2]، وهذا أعم.

وقفة مع طريقة القرآن فى النهى عن الفواحش:

وقد سلك القرآن الكريم فى النهى عن الفواحش طريقة بليغة، حيث نهى عن قربها، والمراد النهى عن مباشرتها وفعلها، وهذا شأن القرآن، وتلك هى طريقته فى النهى عن الأمور التى تنشئ دواعـى وميول لدى الناس؛ فإنه لا ينهى عن الفعل فيها مباشرة ولكنه ينهى عن قربانه.

---

(١) التفسير الكبير جـ١٣ صـ٢٤٥ .

(٢) راجع زاد المسير جـ٣ صـ١٠١، والقرطبى جـ٧ صـ١٣٣، وفتح القدير جـ٢ صـ٢٥٠ .

إما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى إليها، ويكون النهى حينئذ من قبيل المجاز المرسل الذى علاقته السببية حيث نهى عن السبب وأراد النهى عن المسبب.

وإما لأن قرباتها داع إلى مباشرتها؛ لأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية،ومن ثم كان التعبير فى النهى عنها بقوله:"ولا تقربوا.." للنهى عن مجرد الاقتراب، سدا للذرائع، واتقاء للجاذبية التى تضعف معها الإرادة...لذلك حرمت النظرة الثانية ــ بعد الأولى غير المتعمدة ــ ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة،ولذلك كان التبرج -حتى بالتعطر فى الطريق-حراما،وكانت الحركات المثيرة،والضحاكات المثيرة، والإشارات المثيرة، ممنوعة فى الحياة الإسلامية النظيفة.

فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا فى المقاومة! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود، ويوقع العقوبات ... وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح وربك أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير(١).

وقد جاء النهى عن القرب دون فعل الشىء أو الوقوع فيه، فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، وذلك فى قوله عز اسمه:

١ - ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ (٢).

٢ - ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ (٣).

٣ - ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (٤).

٤ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ (٥).

---

(١) راجع الظلال جـ٨ صـ١٢٣١ .
(٢) البقرة/ ٣٥ .
(٣) البقرة/ ١٨٧ .
(٤) البقرة/ ٢٢٢ .
(٥) النساء / ٤٣ .

٥ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (١) .

٦ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (٢) .

٧ - ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ (٣) .

٨ - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (٤) .

٩ - ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِ بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٥) .

١٠ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (٦) .

١١ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (٧) .

وبإمعان النظر فى طبيعة المنهى عنه فى كل هذه الأساليب نجد أن المنهى عنه فى كل هذه الآيات من الأمور التى تنشئ دواعى وميولا لدى الناس، ولذا جاء النهى فيها بـ(لا تقربوا)، ويكون القصد المبالغة فى الزجر عن الوقوع فى فعلها، وذلك لأنها تجذب النفوس إليها بما فيها من إغراءات مختلفة، ومن ثم وجدنا القرآن ينهى عن قربانها، حتى لا تسلم تلك المقدمات الإنسان إلى مباشرة الحرام، والوقوع فيه.

أما المحرمات التى ليست لها دواع؛ ومن ثم لا تميل النفوس إليها، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بالفعل مباشرة لا

---

(١) الأنعام/ ١٥١ .
(٢) الأنعام/ ١٥٢ .
(٣) الأعراف/ ١٩ .
(٤) التوبة/ ٢٨ .
(٥) يوسف/ ٦٠ .
(٦) الإسراء/ ٣٢ .
(٧) الإسراء/ ٣٤ .

بالقربان، ومن ذلك فى هذه الآيات التى معنا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ألا تشركوا بالله شيئا﴾ ، ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾، و﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾ فإن الفعل المنهى عنه وإن كان أشد قبحا، وأعظم جرما عند الله من فعل الفواحش وأكل مال اليتيم إلا أنها ليست مما يميل إليها الإنسان بشهوته، وإنما هى ـ فى نظر العاقل ـ على المقابل من ذلك، يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها، أو فى حكم الكاره.

وكان من آثار هذا الفرق بين ما يتعلق النهى فيه بالقربان من الفعل وما يتعلق فيه بنفى الفعل نفسه، أن الدنو من المكروه بالتفكير فيه، ومحاولة فعله، لا يلزمه أن يصل بالإنسان إلى ارتكابه، وذلك لعدم ميل النفس بطبعها إليه، وليس كذلك الدنو بالتفكير فيما تشتهيه النفس ، وتميل إليه، كالفواحش، وأكل مال اليتيم، فإن الفعل يتبعه غالبا، ولا يتخلف عنه إلا برادع خاص لا يتفق لكثير من الناس، ولا فى كثير من الأحوال.

ومن هنا يظهر السر البلاغى فى مجئ النهى عن الإشراك وأمثاله متعلقا بالفعل نفسه، ومجئ النهى عن الفواحش والمال والزنا .. متعلقا بالقربان منها، ومن أساس هذه النظرة التى تشبه أن تكون فطرية تستطيع إدراك الحكمة فى المغايرة بين أسلوبى النهى فى الجانبين[1].

الوصية الخامسة: النهى عن قتل النفس إلا بالحق:

وقد جاءت هذه الوصية فى قول الله ـ عزوجل ـ:﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(١) راجع من أسرار التعبير القرآنى فى الفاصلة القرآنية د/ عبدالفتاح لاشين صـ١٠٧ .

وفيها ينهى الحق ــ سبحانه ــ عن قتل النفس المعصومة بالإسلام أو بعقد الذمة إلا بحق يوجب ذلك.

والنهى هنا للتحريم، وذلك لأن القتل جريمة كبرى فى حق الإنسانية، واعتداء على صنع الخالق، الذى أحسن كل شىء خلقه، ومن ثم فالأصل فى قتل النفس ــ أى نفس ــ الحرمة، والحل لا يثبت إلا بدليل منفصل.

وقد كانت العرب فى الجاهلية تستخف قتل النفس وتتسرع فيه؛ ولذا كان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلية للشريعة الإسلامية، وكان النهى عن قتل النفس من أهم الوصايا التى أوصى بها الإسلام أتباعه فى هذه الوصايا الجامعة وفى غيرها من القرآن الكريم[1].

ومن عجيب أمر السياق القرآنى أنه يلذ هذه المنكرات الثلاثة: الشرك، والزنا، وقتل النفس فى قرن واحد، ولعل ذلك، لأنها كلها جرائم قتل فى الحقيقة!

الجريمة الأولى، جريمة قتل للفطرة، والثانية جريمة قتل للجماعة، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة.

إن الفطرة التى لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة .

والجماعة التى تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة منتهية حتما إلى الدمار

والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار ، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم، هى أقسى العقوبات؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار[2] ..

ولقد سبق فى هذا الوصايا النهى عن قتل الأولاد من إملاق والآن ينهى عن قتل "النفس" عامة؛ لأنه كان متفشيا بين العرب؛

(١) راجع التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٩١ .
(٢) راجع الظلال جـ٨ صـ١٢٣٢ .

ولأنه فساد عظيم؛ إذ به تنزع الطمأنينة فى المجتمع، ولا يتهيأ لكل فرد من أفراد المجتمع أن ينطلق ليعمل وينتج آمنا على حياته .

وقد اعتبر جمع من العلماء أن النهى عن قتل النفس داخل تحت الفواحش ــ على تفسيرها بالأعم ــ وأن ذكره بعدها شبيه بذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأنه؛ لأن الفواحش يندرج فيها قتل النفس، إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين:

إحداهما: أن الإفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم لهذه الفاحشة، فهى نظير قوله تعالى: ﴿وملائكته وجبريل وميكال﴾ .

والثانية: أنه تعالى أراد أن يستثنى منه قوله: ﴿إلا بالحق﴾ ، ولا يتأتى هذا الاستثناء إلا من القتل لا من عموم الفواحش[1].

وفى الوصية السابقة ذكرت أن جماعة من المدققين لم يعجبهم حمل (الفواحش) على العموم، إذ فى الحمل عليه لا يظهر وجه لتوسيط هذا النهى العام بين أفراده، ومن ثم يكون توسيطه بين النهيين من قبيل الفصل بين الشجرة ولحائها، من أجل هذا حملوه على الزنا دون بقية المحرمات؛ لأنه الأوفق بنظم المتعاطفات، وإلى هذا الرأى أميل؛ لأنه الأوفق بالسياق، والمقام، أما السياق فقد ظهر، وأما المقام فلأن المقام مقام تعديد محرمات، فتكون الفواحش واحدة ــ وهى الزنا ــ ويكون النهى عن القتل واحدة؛ ولذا فلا داعى لحمل النهى عن القتل بعد النهى عن الفواحش، على أنه من باب ذكر الخاص بعد العام . والله أعلم بأسرار كتابه.

وبعد هذا التمهيد الموجز الذى أشرت فيه إلى سبب النهى عن القتل وسره ، كما ألمحت إلى مناسبة هذه الوصية لما قبلها، وارتباطها بها، نقف مع الخصائص الأسلوبية فى هذه الوصية لنرى

---

(١) صـ ٧١ .

كيف تعاونت على أداء المعنى المراد، وهو النهى عن قتل النفس، وعلى الله التوكل، ومنه العون.

الخصائص الأسلوبية لهذه الوصية:

وفى هذه الوصية خصوصيات أسلوبية وتعبيرية تعاونت على كشف المعنى المراد وأدائه بأسلوب بليغ ومؤثر، وأول ما يلقاك من هذه الخصوصيات، ويلفت انتباهك، هو هذا الأسلوب، الذى عرضت فيه الوصية، وهو أسلوب القصر، وأسلوب القصر من أساليب الإيجاز والتوكيد؛ لأن جملة القصر فى قوة جملتين، إحداهما مثبتة والأخرى منفية، وعليه يكون القصر من أساليب الإيجاز والتوكيد ، ويكون الإيجاز والتوكيد من أهم أغراضه.

وتوضيح القصر: أن الله جل وعلا قصر القتل الواقع على النفس البشرية، على كونه بالحق، قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيقا.

والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، وكأن المعنى عليه: أى لا تقتلوها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق .

أو من أعم الأسباب، أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق.

أو من أعم المصادر، أى لا تقتلوها قتلا ما إلا قتلا كائنا بالحق.

وقوله ﴿إلا بالحق﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تقتلوا، ويجوز أن يكون وصفا لمصدر محذوف[1].

ويلاحظ أن طريق القصر هنا، هو طريق النفى والاستثناء، ومن المعلوم أن هذا الطريق، لا يخاطب به إلا المنكر أو ما ينزل

---

(١) أبو السعود جـ٢ صـ٢٢٠، فتح القدير جـ٢ صـ٢٥٠، الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٩ .

منزلته، والعرب لم تكن تنكر أن الأصل فى قتل النفس المنع، وأن القتل لا يلجأ إليه إلا لداع كالقود أو القتال.

لكنهم لما استخفوا بالنفس وكثر القتل بينهم نزلوا منزلة من ينكر هذا ، وخوطبوا بخطاب المنكرين، لما فيه من قوة وشدة.

والنهى هنا مآله التحريم، والتعريف فى "النفس" لتعريف الجنس، فيفيد الاستغراق والعموم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ (١)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ (٢)، وقولهم: "أهلك الناس حب الدينار والدرهم"(٣).

وقد أوحى النهى عن قتل النفس عامة، بأن كل قتل فردى إنما يقع على جنس النفس فى عمومه، ويؤيد هذا الفهم قوله سبحانه: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٤) .

فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية فى عمومها ، وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء.

إذن فالنفس المحرم قتلها عامة، تشمل النفس المسلمة، والذمية، والمعاهدة، ولا يخرج منها إلا الحربى(٥) ، وما ينطبق عليه الاستثناء فى هذه الوصية.

---

(١) سورة المعارج / ١٩ .
(٢) العصر / ٢ .
(٣) راجع تفسير القرطبى جـ٧ صـ١٣٣، والتحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦١
(٤) سورة المائدة/ ٣٢، وراجع الظلال جـ٨ صـ١٢٣٢ .
(٥) مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣١، البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٢ .

وهذا التعميم جعل للنفس البشرية قدسية، وحرمة، جعلها النبى -صلى الله عليه وآله وسلم-يوم حجة الوداع،أشد وأعظم،من حرمة البيت العتيق؛ وذلك لأنها صنعة الله وبنيانه، ومن أزال الحياة عنها، فكأنما أفسد صنعة الله وهدم بنيانه، الذى أراد بناءه، وإيجاده ليعمر به الأرض،تأمل قوله:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] .

على أنه قد تواتر وشاع بين الأمم فى سائر العصور والشرائع من عهد آدم ــ عليه السلام ــ صون النفوس من الاعتداء عليها بالإعدام، ولذلك وصفت فى الوصية بأنها : "التى حرم الله" أى عرفت بمضمون هذه الصلة.

وقوله سبحانه: ﴿التى حرم الله﴾ صفة للنفس؛ وفى هذا الوصف تأكيد للتحريم؛ إذ يوحى بأنه تحريم قديم؛ لأن الله حرم قتل النفس من عهد آدم[2].

ومن ثم جعل أبوحيان ــ رحمه الله ــ هذا الوصف ــ لقدمه ــ حوالة على سبق العهد فى تحريمها[3].

وأضاف الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ أن النفس قد وصفت بالموصول وصلته لكون التحريم مشهورا من قبل هذا النهى؛ وذلك إما لأنه تقرر من قبل بآيات أخرى نزلت قبل هذه الآية، وقبل آية الإسراء وإما لتنزيل الصلة منزلة المعلوم؛ لأنها مما لا ينبغى جهله، فيكون تعريضا بأهل الجاهلية، الذين كانوا يستخفون بقتل النفس بأنهم جهلوا ما كان عليهم أن يعلموه تنويها بهذا الحكم[4].

---

(١) هود/ ٦١ .
(٢) فتح القدير جـ٢ صـ٢٥، التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦١ .
(٣) صـ٧٥ .
(٤) التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٩١ .

وتأمل دقة القرآن وجمال تعبيره فى تعليق التحريم بالنفس، والنفس لا يتعلق بها التحريم، ـ لأنها ذات ـ وإنما يتعلق بما تقتضيه، وهو القتل، على ما هو المعروف فى تعليق التحريم والتحليل بأعيان الذوات، أى أنه يراد تعليقه بالمعنى الذى تستعمل تلك الذوات فيه، كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [1] أى أكلها.

وهذا من باب المجاز العقلى، وقد أفاد تعليق التحريم بالذات، المبالغة فى حرمة مساس النفس بأذى، وهذا أبلغ من تقدير حذف مضاف ـ وهو قتلها ـ ؛ لأن تعليق التحريم بالذات، يعم القتل وغيره، وهذا يؤكد حرمة القتل؛ لأنه إن حرم ما دونه، كان تحريمه له أولى وآكد .

وليس الأمر كذلك عندما نقدر حذف مضاف ، إذ فيه تحريم للقتل فقط، وهذا يتنافى مع خصائص التعبير القرآنى، الذى يتميز بكثرة العطاء ووفرته.

ومن المعلوم أن الإمام عبدالقاهر الجرجانى ـ طيب الله ثراه ـ وكذا العلامة ابن جنى والمدققين من عدول هذه الأمة، قد رفضوا أن يكون الكلام فى مثل ما نحن فيه على تقدير حذف مضاف؛ لأنه يؤدى إلى شىء مغسول، وإلى كلام عامى مرذول، وإلى شىء يعزل البلاغة عن سلطانها، ويخفض من شأنها، ويصدأ وجها من محاسنها، ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها علينا[2].

عد عن ذا وعد بنا إلى قضيتنا، أقول ومما يؤيد هذا الفهم أن هناك من أجاز أن يكون معنى (حرم الله) أى جعلها الله حرما أى

(١) المائدة/ ١ .
(٢) راجع أسرار البلاغة جـ٢ صـ٢٢٤، وخصائص التراكيب د/محمد أبوموسى صـ٨٦ .

شيئا محرما لا يعتدى عليه بأذى كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ (١) ، وقوله صلوات الله عليه: "إنما أحرم ما بين لا بتيها"(٢)؛ إذ يلتقى هذا القول ــ وإن لم يكن مجازا عقليا ــ مع الفهم الأول على حرمة مساس النفس البشرية المسلمة والذمية والمعاهدة بأذى؛ لأنها حرم الله.

ثم أعد التأمل فى فاعل هذا التحريم، إنه الله ــ جل وعلا ــ، وليس تحريما بشريا، ولعل فى هذا تعريضا بالمشركين وبأصنامهم التى لا تنفع ولا تضر ولا تحرم ولا تحل.

فالفاعل وإظهاره يفيد المبالغة فى حرمة قتل النفس ... إنه تحريم الله جل وعلا !!

ثم أمعن النظر فى قوله : ﴿ولا تقتلوا ... التى حرم الله﴾ لترى ذلك الطباق الخفى بين الحرم وبين القتل، وهو يؤكد تحريم القتل؛ إذ كيف تكون النفس حرما لله ويقع عليها قتل؟!!!

وقوله سبحانه: ﴿إلا بالحق﴾ استثناء من هذا النهى العام، وهو استثناء مفرغ من أحد ثلاثة أمور: إما أعم الأحوال، وإما أعم الأسباب، وإما أعم المصادر وقد سبق توضيح ذلك.

والباء فيه للملابسة أو السببية، وهى ومدخولها فى محل نصب على الحال من فاعل تقتلوا، ويجوز أن يكون وصفا لمصدر محذوف، وقد رجح صاحب الفتوحات الثانى(٣).

والحق ضد الباطل،ويراد به هنا الحكم الذى هو بحسب مقتضى الحكمة، يقال أحققت كذا أى أتيته حقا أو حكمت بكونه حقا(٤).

---

(١) سورة النمل / ٩١ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦١ .
(٣) الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٩ .
(٤) المفردات للراغب مادة : حق .

والتعريف فيه للجنس، والمراد به ما يتحقق فيه ماهية الحق.

وقوله سبحانه : ﴿إلا بالحق﴾ ، فيه إيماء إلى أن قتل النفس قد يكون حقا لجرم يصدر منها.

وهذا الحق الذى تؤخذ به النفس بينه الله فى شريعته، ولم يتركه للتقدير والتأويل، ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة وأصبح لها من السلطان ما يكفل لها تنفيذ الشريعة! (١).

هذا الحق حدده النبى ــ صلوات الله عليه ــ فى قوله : "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

فالقتل بحق له ثلاث حالات ، ورد بيانها فى الحديث السابق، وقد دلنا القرآن الكريم على سبب رابع للقتل الحق، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ (٢).

ومن ثم فإن الحق الذى يستباح به قتل النفس المحرم قتلها أربعة أشياء القود، والزنا بعد إحصان ، والكفر بعد إيمان، والمحاربة.

﴿ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ .

وهذه هى الفاصلة، التى جاءت تذييلا للوصايا الخمس السابقة، ومن عجيب أمر القرآن، أن هذا التذييل جاء مناسبا تمام المناسبة لتلك الوصايا،إذ كانت هذه الوصايا تمهيدا لهذه الفاصلة:﴿ ذَٰلِكُمۡ

(١) الظلال جـ٨ صـ١٢٣٢ .
(٢) سورة المائدة/ ٣٣ .

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ لأنها إنما يحمل على فعلها العقل الذى يغلب عليه الهوى؛ حيث إن الإشراك بالله سببه عدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته، وكذلك عقوق الوالدين، لا يقتضيه عقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الكريم، عمل يدفع إليه عدم العقل، كذلك إتيان الفواحش، وقتل النفس لغضب أو غيظ كما أن هذه الأشياء أمور عظام، والوصية بها من أبلغ الوصايا فختمت بما فى الإنسان من أشرف السجايا ، وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن بقية الحيوان[1].

وهذا التذييل الذى فصل به السياق بين هذا القسم والذى يليه ــ قبل أن يمضى فى بيان المحرمات والتكاليف ــ قد أوما إلى انتهاء نوع خاص من المحرمات، وهو المحرمات الراجع تحريمها إلى إصلاح الحالة الاجتماعية للأمة، بإصلاح الاعتقاد، وحفظ نظام العائلة، والانكفاف عن المفاسد، وحفظ النوع بترك التقاتل[2]، وكلها أمور تدرك بديهة العقول قبحها، ومن ثم فصلت الآية الكريمة بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وبالتأمل فى هذا التذييل، نجد أنه ــ على بساطته ــ جاء زاخرا بالخصوصيات الأسلوبية التى توحى ببلاغة عالية .

تأمل أولا هذا التذييل، تجده مكونا من جملتين: الأولى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ ، الثانية: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى فى الفاصلة القرآنية د/ عبدالفتاح لاشين صـ١٠٩، وراجع تفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨١ .

(٢) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦١ .

وقد فصلت الجملة الأولى عن الوصايا الخمس؛ لأن الوصايا جاءت بأسلوب إنشائى ــ وهو النهى ــ وهذه الجملة جاءت بأسلوب خبرى، فبينهما كمال انقطاع، وجئ بهذه الجملة تجديدا للعهد وتأكيدا لإيجاب المحافظة على ما كلفوه، وقال الإمام: جئ بها لتقريب القبول إلى القلب لما فيها من اللطف والرحمة(١).

وفصلت الجملة الثانية عن الجملة الأولى ــ فى التذييل ــ لشبه كمال الاتصال ، حيث جاءت الجملة الثانية جوابا لسؤال أثارته الجملة الأولى؛ لأن الحق ــ جل وعلا ــ حينما قال عقب هذه الوصايا الخمس : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أثارت هذه الجملة سؤالا مؤداه: ولم توصى بها؟ فأجاب:﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى رجاء أن تفهموا فوائدها وعظمها .

وبعد أن بدا ترابط التذييل مع الوصايا السابقة ترابطا محكما يحسن بنا أن نقف على الخصوصيات التى تشى بالمعانى والإشارات التى تكمن وراء أحوال الكلمات ومواقعها فى العبارة على أوضاع مختلفة ، كما تكشف عن لمحات بلاغية خلابة من خلال وضع البصر على مواطن الحسن فى الكلمة القرآنية، وكيف لاءمت معناها ملاءمة دقيقة وأحاطت بالفكرة إحاطة كاشفة .

وأول ما يلقانا من ذلك قوله سبحانه فى مستهل هذا التذييل: "ذلكم" و(ذا) اسم إشارة، والمشار إليه مجموع ما ذكر من الوصايا الخمس، ولذلك أفراد اسم الإشارة.

واللام فيه للبعد، وما فى ذلك من البعد للإيذان بعلو شأنها بين التكاليف الواردة فى الوصايا،كما توحى ببعد مدى ما تدل عليه الوصايا المشار إليها من الحكم والإحكام، والمصالح الدنيوية والأخروية.

(١) أبوالسعود جـ٢ صـ٢٢١، روح المعانى جـ٨ صـ٥٥ .

فالبعد على هذا مجازى، حيث نزل بعد المكانة منزلة بعد المكان، وحملها بعضهم على البعد الحقيقى؛ لأنها تشير إلى بعدها عن متناول أوضاع الجهل والجاهلية ولاسيما مع الأمية[1].

والكاف للخطاب، وهى توحى بإقبال الله ـ عز اسمه ـ عليهم واهتمامه بهم وخطابهم لهم، وجعلهم أوصياء له تعالى، وفى هذا ما لا يخفى من الإحسان إليهم.

والميم للجمع، وهى توحى بعموم الخطاب وشموله لكل الناس، ومن الملاحظ أن هذين لحرفين حاضران فى الوصايا من أولها إلى آخرها، وهما يومئان إلى إقبال الله عليهم وشمول هذا الإقبال لكل الخلق.

وتأمل قوله سبحانه : ﴿وصاكم به﴾ ، أى أمركم بها، وأوجبها عليكم وطلبها منكم .

والوصية هى: ما يعهد إلى الإنسان أن يعمله من خير أو ترك شر بما يرجى تأثيره[2]، وجعلها الراغب عبارة عما يطلب من عمل مقترنا بوعظ[3].

فانظر إلى دقة التعبير القرآنى فى اختياره اللفظ الذى يقرب إلى القلب القبول حيث قال : ﴿وصاكم بها﴾ ولم يقل ـ مثلا ـ أمركم بها، وذلك لما فى هذه اللفظة من اللطف والرأفة، اللذين يجعلان التكليف أقرب إلى القبول.

وقد أشار إلى هذا الملمح الإمام الفخر الرازى[4] ـ رحمه الله ـ وتبعه جمع من العلماء ، لكن الألوسى ـ طيب الله ثراه ـ قد

---

(١) المنار جـ٨صـ١٨٨،وراجع تفسير أبىالسعود جـ٢صـ٢٢١ .
(٢) المنار جـ٨ صـ١٨٨ .
(٣) المفردات للراغب مادة : وصى .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٥ .

أشار إلى أن اختيار هذه اللفظة يوحى بالتأكيد، فقال : "أى طلبه منكم طلبا مؤكدا"[1]، وذلك لأن الوصاة هى الأمر المؤكد المقرر قال الأعشى:

أجدك لم تسمع وصاة محمد ∴ نبى الإله حين أوحى وأشهدا[2]

ثم أعد النظر والتأمل فى فاعل "وصاكم"؛ إذ أسند هذا الفعل إلى ضمير "ربكم"، وذلك لتقرير أن هذه الوصايا من عند الله ــ جل وعلا ــ، وليست من عند أحد غيره.

ومن ثم فإن هذا التعقيب يجئ وفق المنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله، تقريرا لوحدة السلطة التى تأمر وتنهى فى الناس وربطا للأوامر والنواهى بهذه السلطة التى تجعل للأمر والنهى وزنه فى ضمائر الناس!

كذلك تجئ فيه الإشارة إلى التعقل، فالعقل يقتضى أن تكون هذه السلطة وحدها، هى التى تعبد الناس لشرعها، وقد سبق أنها سلطة الخالق المتصرف فى حياة الناس! ، وهذا وذلك فوق ما فى الطائفة الأولى من التجانس فجعل هذه آية وتلك فى آية، وبينهما هذا الإيقاع[3].

وقد ذكر الطبرسى ــ رحمه الله ــ أن قوله سبحانه:﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ قد دل على أن الوصية مضمرة فى أول الآية[4] على ما قلناه فى حينه.

---

(١) روح المعانى جـ٨ صـ٥٥ .

(٢) راجع البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٢، النهر الماد جـ١ صـ٧٦٩ .

(٣) فى ظلال القرآن جـ٨ صـ١٢٣٢ .

(٤) مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣١ .

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى رجاء أن تفهموا فوائد هذه الوصايا، ومنافعها فى الدين والدنيا، فتعملوا بها.

وقد ذكرت عند الوقوف على سر مناسبة هذا التذييل للوصايا السابقة أنه لما كانت الأمور المنهى عنها مما تقتضى بديهة العقول قبحها فقد فصلت الآية الكريمة بقوله ﴿لعلكم تعقلون﴾.

ولعلك تلاحظ أن فى قوله: "تعقلون" مجازا مرسلا علاقته الآلية أو السببية؛ لأنه عبر بالعقل وأريد الفهم، فالعقل آلة الفهم أو سببه.

وفى التعبير بالعقل، دليل على الحسن الذاتى، وإدراك العقول له بنظرها، فإذا هى عقلت ذلك، كان عاقلا لها وماتعا من المخالفة.

كما أن فيه تعريضا بأن ما هم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرا مما لا تعقل له فائدة، وتظهر للأنظار الصحيحة الراجحة مصلحة[1].

كذلك يوحى قوله (تعقلون) بأن ملابسة بعض المحرمات ينبئ عن خساسة عقل بحيث ينزل ملابسوها منزلة من لا يعقل، فلذلك رجا أن يعقلوا أى يصيروا ذوى عقول ، وكأن فى ذلك تعريضا بعقولهم.

وتأمل قوله: "تعقلون" فإن له مفعولا معلوما ومقصودا ــ قدره بعضهم بقوله: فوائد هذه الوصايا ــ ولكنه طرح ونسى ليوهم توقع حدوث العقل والفهم لكل شىء، ولو قيل تعقلون فوائد هذه الوصايا فقد يتوهم أنهم يعقلون هذه الوصايا فقط دون غيرها،وهذا غير وارد، وإنما المراد أن يحدث منهم تعقل وفهم لكل ما يأتهم عن ربهم، ومن ثم فإن حذف المفعول له دلالته البلاغية التى تتناسب مع السياق والمقام.

(١) راجع المنار جـ٨ صـ١٨٨، تفسير المراغى جـ٧ صـ٦٧ .

ومن الملاحظ أن طلب فهمهم لهذه الوصايا وتعقلهم لها قد صور فى صورة الأمر المرجو، الذى تشتاق إليه نفس الراجى وتتوقع وقوعه عن قريب، وفى تصوير الأمر المطلوب بصورة المرجو من المبالغة فى الدلالة على قوة الطلب ما فيه.

كما أن إيثار التعبير القرآنى (لعل) ـ وهى حرف توكيد ـ يوحى بأن الرجاء فى الآية، رجاء مؤكد، والتوكيد هو الآخر يفيد المبالغة فى تطلع الراجى إلى تحقيق مرجوه.

ولما كان الرجاء فى جانب المولى ـ تبارك وتعالى ـ فقد تأوله علماؤنا الأجلاء، تنزيها له ـ سبحانه ـ عن الجهل بالعاقبة، وذلك لأن معنى الترجى يقتضى عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلم، فللشك جانب فى معناها حتى قال الجوهرى : "لعل كلمة شك".

وكان مما ذكره علماؤنا فى تأويل (لعل) إذا كانت فى جانب الله ما يأتى:

١ - يشبه طلبه تعالى من عباده برجاء الراجى من المرجو منه أمرا هين الحصول، للدلالة على المبالغة فى قوة الطلب وترقيقا للمطلوب منه.

٢ - أن الرجاء راجع إلى العباد لا إليه تعالى، أى أنه فى حيز البشر وعلى شك المخاطبين، فكأنه قيل افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا ..... وهذا هو مذهب سيبويه[1].

٣ - أن (عسى ولعل) فى القرآن وفاعلهما الله تعالى: للتحقيق واليقين، ويعنون بذلك تحقيق مضمون جملتها، وذلك

(١) الكتاب لسيبويه جـ٢ صـ١٦٧، وراجع الأمالى الشجرية جـ١ صـ٥٠، وتفسير القرطبى جـ١ صـ٢٢٧ .

لاستحالة الطمع والإشفاق عليه تعالى[1]، فقد ذكر الزمخشري، والفخر الرازي أن معناهما اليقين والإيجاب وليس الشك، فهي على عادة الملوك والعظماء، أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها، على أن يقولوا (لعل وعسى) ونحوهما من الكلمات، أو للظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة ، فإذا عثر على شيء من ذلك لم يبق للطالب شك في الفوز بالمطلوب، فعلى هذا الطريق ورد لفظ (لعل) في كلام الله تعالى[2].

٤ - ما قاله قطرب، والطبري، وأبوعلي الفارسي، وابن الأنباري، وجماعة من الأدباء، في (لعل) حيث ذكروا أنها للتعليل، فهي بمعنى (كي)، وأحسب أن مرادهم بهذا المعنى، في المواقع التي لا يظهر فيها معنى الرجاء، وذلك كما في قوله (تعالى) : ﴿لعلكم تعقلون﴾ ، وقوله تعالى: ﴿لعلكم تذكرون﴾ ، وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ ونحو ذلك مما ورد في القرآن الكريم، والمعنى: على هذا: لتعقلوا، وتذكروا، ولتتقوا[3] ... إلخ.

وقد حاول الزمخشري ــ رحمه الله ــ أن يبين مراد القائلين بهذا القول، فبين أنهم لا يريدون أن (لعل) بمعنى (كي) حقيقة؛ لأن أئمة اللغة لم يذكروا في بيان معناها الحقيقي سوى الترجي

---

(١) ينظر كتاب العين وتاج العروس مادة (لعل)، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث جـ١ صـ٤٣٨، البرهان للزركشي جـ٤ صـ١٥٨ .

(٢) راجع الكشاف جـ١ صـ٢٢٩، تفسير الفخر الرازي جـ٢ صـ٩٢ .

(٣) راجع زاد المسير جـ١ صـ٤٧، والقرطبي جـ١ صـ٢٢٧، الدر المصون جـ١ صـ١٤، شرح المفصل جـ٨ صـ٦٨ ، التحرير والتنوير جـ١ صـ٣٢٨

والإشفاق، ولو وردت بمعنى (كى) لجاز أن يقع بدلها فى ذلك قولك: دخلت على المريض كى أعوده، ولا يقول به أحد .

وإنما أرادوا أن ما بعدها إذا صدرت على سبيل الإطماع من الكريم متحقق عقيب ما قبلها كتحقق الغاية عقب ما هى سبب له، فكأنها بمعنى كى[1].

ولذا قال الزمخشرى: "(لعل) لا تكون بمعنى (كى) ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك"[2] ، ويقصد بالحقيقة ما ذكرته من أنها بمعنى اليقين؛ لأنها إطماع من كريم، وعلى هذا فإن هذا القول قريب من القول السابق، الذى يقول بأن (عسى ولعل) للتحقيق واليقين.

٥ - ما ذكره ابن الشجرى فى الأمالى الشجرية من أن (لعل) بمعنى التعرض للشىء، كأنه قيل: افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا[3].

تلك هى أبرز الأقوال، التى قيلت فى توجيه الرجاء إذا جاء مسندا إلى الله ــ جل وعلا[4] ــ ، وأميل إلى القول الأول فى توجيه التذييل الذى نقف معه، لأنه أبلغ، وأنسب بمقام التكليف.

بقيت مسألة تلفت النظر، وهى اكتناف اللطف والرحمة لهذه الوصايا، من أولها إلى آخرها، انظر إلى قوله: "تعالوا" وما فيها من الاهتمام بهم والارتفاع بأنفسهم، ثم قوله: "أتلو" وما فيها من ارتفاعهم إلى درجة أن يتلى عليهم وحى الحكيم الخبير ، ثم قوله : "ربكم" وما فى وصف الربوبية من العطف والحنان والرعاية .

---

(١) حاشية السيد على الكشاف جـ١ صـ٢٣٠ .
(٢) الكشاف جـ١ صـ٢٢٩ .
(٣) الأمالى الشجرية جـ١ صـ٥٠ ، وراجع القرطبى جـ١ صـ٢٢٧ .
(٤) راجع الأساليب الإنشائية غير الطلبية فى القرآن الكريم للباحث صـ٤٠٧ وما بعدها .

ثم قوله : "وصاكم" وما فيها من جعلهم أوصياء لله تعالى، وفى ذلك من الإحسان ما فيه، وفى النهاية صور الأمر المأمور بـه فـى صورة المرجو، والآمر بالراجى وفى ذلك من الترفق واللين ما فيه .

الوصية السادسة: النهى عن قرب مال اليتيم :

وجاءت هذه الوصية فى قول اله ــ عز اسمه ــ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (١) .

وفيها ينهى الحق ــ جل وعلا ــ عن القرب من مـال اليتـيم بوجه من الوجوه، إلا بالتى هى أحسن، وذلك بأن يسـعى الـولى أو الوصى فى تنميته وتثميره وتحصيل الربح به، والمراد من ذلك حفظ ماله، وعدم تبذيره أو إضاعته، إلى أن يدفع إليه عند سن البلوغ.

وهذه الوصية من أهم الوصايا التى أوصى الله بها فـى هـذه الآيات؛ لأن العرب فى الجاهلية كـانوا يسـتحلون أمـوال اليتـامى لضعفهم وقلة نصيرهم، وعدم فطنتهم لمن يأكل أموالهم، ومن ثم كان اليتيم ضائعا فى المجتمع العربى فى الجاهلية، وكثـرة التوجيهـات الواردة فى القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشى بما كان فاشيا فـى ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه، حتى انتدب الله يتيما كريما فيه ، فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود حين عهد إليـه بالرسـالة إلـى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به رعايـة اليتـيم وكفالته على النحو الذى نرى منه هذا التوجيه، الذى نهى الله فيـه عن القرب ــ الذى يعم جميع وجوه التصرف ــ من أموال اليتامى إلا بالفعلة الحسنة، ليحذر المسلمين من ذلك، وذلك لإزالة ما عسـاه أن يكون قد بقى فى نفوسهم من أثر من تلك الجاهلية(٢) .

ومن المعلوم المسلم به أن حال البالغ كحال اليتيم فـى حـال الاعتداء على ماله، لكن الله ــ سبحانه ــ خص اليتيم بالذكر ــ ولم

---

(١) الأنعام/ ١٥٢ .

(٢) التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٩٦، الظلال جـ٣ صـ١٢٣٣ .

يوص بمال غير اليتيم إلا المرأة،لأن اليتيم ضعيف وعاجز،لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا عن غيره،كما أنه قليل المراعاة لماله وشئونه.

ولذا فإننا نجد الأطماع فى ماله أشد، ويد الرغبة إليه أمد، والناس فى غفلة عنه لانشغالهم بأحوالهم وأبنائهم[1] .

ولما كان ما له مظنة الاعتداء عليه، وهو مظنة انعدام المدافع عنه، فقد تولى الله أمره، وأمر بالشفقة والنظر فى حقه، كما أكد ــ سبحانه ــ النهى عن التصرف فى ماله ، وإن كان ذلك واجبا فى مال كل أحد [2] .

وفيما يل نحاول الوقوف على الدقائق الأسلوبية التى تعاونت على إبراز المعنى المراد من هذه الوصية .

تأمل قوله جلا وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تجد أن هذه الجملة معطوفة على الجملة التى فسرت فعل : "أتل" وهى قوله : ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ عطف محرمات ، وبالنظر فى هذه المحرمات نجد هذه الوصية التى معنا، قد بدأت نوعا جديدا من المحرمات يرجع إلى حفظ قواعد التعامل بين الناس، لإقامة قواعد المجتمع الإسلامى، وتحقيق الثقة بين الناس[3].

وقد ابتدأ الحق سبحانه هذا النوع من المحرمات، بحفظ حق الضعيف الذى لا يستطيع الدفع عن حقه فى ماله، وهو اليتيم ، فقال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ .

فنهى عن القرب منه، والمراد التصرف بأى وجه من وجه التصرف[4]، وذلك على سبيل المجاز المرسل، الذى علاقته السببية، حيث نهى عن السبب وأريد النهى عن المسبب ، وهو الفعل.

(١) راجع مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٤ .
(٢) راجع روح البيان جـ٣ صـ١١٩ .
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٣ .
(٤) راجع مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٤، البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٢ .

ويجوز أن يكون القربان،كناية عن ملابسة مال اليتيم والتصرف فيه، وتوجيه النهى إلى قربانه أبلغ وآكد من النهى عن أكله أو التصرف فيه بأى وجه من الوجوه؛ لأن الأول يتضمن النهى عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه، وعن الشبهات التى هى مظنة التأويل، كأن يأكل شيئا من ماله أثناء آداء عمل له فيه ربح، وقد نهى الله تعالى عن الأكل من مال اليتيم إلا لضرورة أو حاجة فقال : ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (١) .

أضف إلى ذلك أن فى النهى عن القرب من مال اليتيم، تحذيرا من أخذ ماله والتصرف فيه ولو بأقل أحوال الأخذ ؛ لأنه ــ كما قلت ــ ضعيف ، لا يستطيع أن يدافع عن نفسه فضلا عن ماله، ولذلك لم يقل الحق ــ سبحانه ــ هنا ــ فى مقام التحذير من التصرف فى ماله ــ : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ كما قال فى سورة البقرة ــ فى مقام التحذير من أكل أموال الناس ــ:﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢) .

وقد ذكرنا سر هذا فى الوصية السابقة، كما ذكرنا المقامات التى جاء فيها النهى عن القرب ، ويراد منه النهى عن الفعل، ومناسبة هذا النهى للمقام، ولذا فلا داعى لتكراره وإعادته، لكن ما ينبغى أن يذكر هنا ، وأن أحرص عليه، هو أننى لاحظت أن القرآن الكريم فى مقام التحذير من أكل مال اليتيم ــ فى حال يتمه ــ يقول: "ولا تقربوا" للتحذير من الفعل، ولتعظيم إثمه .

(١) النساء/٦،وراجع التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى جـ٧ صـ٩٨
(٢) البقرة / ١٨٨ .

وفى مقام الوعيد على الفعل يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (١) وذلك لتقبيح صورتهم، وللتشنيع عليهم بأنهم لا هم لهم فى الحياة إلا الأكل وملء البطون، وقد أوحى بهذا الفهم، التعبير عن جميع ألوان التصرف فى مال اليتيم بالأكل.

وانظر إلى دقة التعبير القرآنى حيث جعل عقاب أكلهم أموال اليتامى ظلما فى الدنيا، أكلهم رضف النار فى الآخرة وبعده يصلون سعيرا.

وتأمل صورتهم، وهم يلتهمون رضف جهنم، إنها صورة قبيحة شنيعة، تناسب صورتهم وهم يلتهمون مال الضعيف، الذى ليس له إلا الله، فهو سنده، وهو المدافع عنه .

ثم تأمل قوله : ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ فهم لا هم لهم فى الدنيا إلا ملء بطونهم؛ ولذا سيملؤونها نارا فى الآخرة.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (٢) وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ (٣) فقد نهى عن الأكل فيهما ؛ لأنه بعد بلوغهم سن الرشد.

وأما قوله : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ (٤) فهذا هو الأكل الضرورى، الذى تدفع إليه الحاجة، وقد قيد بالمعروف.

---

(١) النساء / ١٠ .
(٢) النساء/ ٢ .
(٣) النساء/ ٦ .
(٤) النساء/ ٦ .

ولما اقتضى هذا النهى حرمة التصرف فى مال اليتيم بأى وجه من الوجوه ــ ولو بالحفظ ــ استثنى من هذا الحكم العام بطريق الاستثناء قوله: ﴿إِلا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أى إلا بالحالة التى هى أحسن،فاسم الموصول صفة لموصوف محذوف،يقدر مناسباللموصول الذى هو اسم للمؤنث، فيقدر بالحالة أو الخصلة أو الطريقة.

ولك أن تقدره بالمرة من "تقربوا" أى إلا بالقربة التى هى أحسن[1]، وقد ذكر الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ أنه قد التزم حذف الموصوف فى مثل هذا التركيب واعتباره مؤنثا يجرى مجرى المثل، وجعل منه قوله تعالى: ﴿ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [2] أى بالخصلة الحسنة ادفع السيئة.

و"أحسن" اسم تفضيل، وقد أتى به تنبيها على أن يتحرى الولى أو الوصى فى مال اليتيم غاية التحرى، فيفعل الأحسن، ولا يكتفى بالحسن، ولذا لم يأت فى الذكر الحكيم إلا بالتى هى حسنة، بل جاء بأفعل التفضيل مراعاة لمال اليتيم وإشعارا بأنه لا تكفى معه الحالة الحسنة بل ــ الخصلة الحسنى[3].

وذكر جمع من العلماء أن الخطاب فى هذه الوصية للأولياء، والأوصياء، وذلك لقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [4] .

لكنى أميل إلى أن الخطاب عام، يعم الأولياء والأوصياء وكل المخاطبين ؛ لأن المقصود بالنهى عن قرب مال اليتيم النهى عن كل

---

(١) راجع روح المعانى جـ٨ صـ٥٦، والتحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٣، ومجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٤ .

(٢) فصلت / ٣٤، وراجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٣ .

(٣) راجع الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٩ .

(٤) راجع تفسير أبىالسعود جـ٢ صـ٢٢١، وروح البيان جـ٣ صـ١١٩ .

تعد عليه وهضم له من الأوصياء والأولياء وغيرهم من الناس، ويؤيد هذا الفهم جعل بعضهم (حتى) غاية للنهى ، وحمل (الأشد) على معناه اللغوى، وهو سن القوة البدنية والعقلية بالتجارب.

ولذا فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن، فيصونه، وينميه ، حتى يسلمه إليه كاملا ناميا عند بلوغه أشده.

وكذلك ينبغى على كل الناس الحفاظ على مال اليتيم من الضياع أو التلف وهذا الفهم أليق بمقصود الوصية المباركة.

وبناء على ذلك فإن الإتيان بضمير جماعة المخاطبين كالقول فى سابقيه؛ لأن المنهى عنه من أحوال أهل الجاهلية.

وهذا الاستثناء ﴿إِلا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ استثناء مفرغ، وهو من أعم الأحوال، وكأن المعنى: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التى هى أحسن من غيرها ، وهى ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم وزيادة فى ماله، وقد حصر بعضهم ذلك فى التجارة[1].

وقد سبق هذا الاستثناء بالنهى ــ وهو فى معنى النفى ــ، ولذا أفاد الكلام الحصر، وهو نفى أى قربان من مال اليتيم إلا بالحسنى.

على أن من دلالات القصر وإيحاءاته التقوية والتوكيد والإيجاز؛ لأن جملة القصر فى قوة جملتين ، إحداهما مثبتة والأخرى منفية.

وقد جئ بطريق النفى والاستثناء ، إما لأنهم كانوا منكرين لحرمة أكل أموال اليتامى، وإما لتنزيلهم منزلة المنكرين باعتداءاتهم المتكررة على مال اليتيم.

---

(١) راجع فتح القدير جـ٢ صـ٢٥١ .

و(حتى) فى قوله ــ عز اسمه ــ : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حرف جر وغاية، وهى محمولة على المعنى، أى أنها غاية من حيث المعنى، لا من حيث التركيب اللفظى، ولذا ذكر علماؤنا أنه غاية لما يفهم من الاستثناء وليس للنهى، كأنه قيل: احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا، فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله، كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (١).

والأشد جمع شدة كنعمة وأنعم أو شد ككلب وأكلب ، أو شد كصر وآصر، وقيل هو مفرد كآنك .

وأيا ما كان فهو من الشدة أى القوة والجلادة، وقيل أصله من الارتفاع من شد النهار إذا ارتفع، ومنه قول عنترة:

عهدى به شد النهار كأنما ∴ خضب اللبان ورأسه بالعظلم(٢)

وقد ذكر العلماء فى تحديده أقوالا كثيرة، لا يمكن أن تجئ هنا وكأنها نقلت من تفسير قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده﴾ وفرق كبير بين المقامين؛ لأن هذا نهاية الأشد، وما نحن فيه ابتداء تمامه وليس هذا مثل ذلك، ولذا فإنى أرجح أن يكون المراد بالأشد هنا هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد، وهذا هو المختار فى تفسير هذه الآية وهو أقوى الوجوه(٣).

---

(١) النساء/ ٦ وراجع البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٢، والنهر جـ١ صـ٧٦٩ وتفسير أبى السعود جـ٢ صـ٢٢١ .

(٢) راجع اللسان: مادة: شدد ، وراجع تفسير أبى السعود جـ٢ صـ٢٢١، وروح المعانى جـ٨ صـ٥٥، والبحر المحيط جـ٤ صـ٥٢، وتفسير الطبرى جـ٧ صـ١١٠، وتفسير الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٧ .

(٣) راجع تفسير الخازن جـ٢ صـ٢٠٠، وفتح القدير جـ٧ صـ٩٨

قلت إن (حتى) غاية لما يفهم من الاستثناء وليست غاية للنهى ؛ لأن هذا يقتضى إباحة أكل مال اليتيم بعد بلوغه، وليس بلوغ اليتيم أشده مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن، لأن الحرمة ثابتة أيضا فى حق البالغ. وهذا هو رأى جمهور المفسرين خلافا للإمام محمد رشيد رضا الذى أشار إلى أنها يمكن أن تكون غاية للنهى عن القرب من ماله، وذكر أن فى ذلك من المبالغة فى الترهيب عن التعامل فى مال اليتيم ما فيه[1].

لكنى لا أوافق الإمام على هذا؛ لأن النهى عن القرب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن على الأبد ، وليس مغيا ببلوغه أشده.

وما ذكره الإمام من المبالغة فى الترهيب، ليس من جعل قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ غاية للنهى، وإنما من خصائص أخرى قد وقفنا معها، كتعليق النهى بالقربان دون الأكل، وعموم النهى..إلخ.

على أن حمل (حتى) على أنها غاية لما يفهم من الاستثناء وليست للنهى، قد دفع إمام المفسرين ابن جرير الطبرى إلى أن يذهب إلى أن فى الكلام محذوفا ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف، وذلك أن معنى الكلام :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده فآنستم منه رشدا، فادفعوا إليه ماله،لأنه جل ثناؤه لم ينه أن يقرب مال اليتيم فى حال يتمه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، ويحل لوليه بعد بلوغه أشده أن يقربه التى هى أسوأ ، ولكنه نهاهم أن يقربوا حياطة منه له وحفظا عليه ليسلموه إليه إذا بلغ أشده[2].

---

(١) تفسير المنار جـ٨ صـ١٨٩ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ٧ صـ١١٠، وتفسير القرطبى جـ٧ صـ١٣٤ .

فكلامه يوحى بأن فى الكلام حذف شرط وجوابه، وهو: فإذا بلغ أشده فآنستم منه رشدا فادفعوا إليه ماله، وقد عقب ابن الجوزى على كلام ابن جرير بقوله: وهذا الذى ذكره ابن جرير ليس بصحيح؛ لأن إيناس الرشد استفيد من سورة النساء وكذلك أولياء اليتامى فحمل المطلق على المقيد"(١).

وأرى أن ما ذكره ابن الجوزى يمكن أن يكون قرينة على الحذف الذى ذكره الطبرى، والله أعلم بأسرار كتابه.

الوصية السابعة: الأمر بالوفاء بالكيل والميزان:

وقد تضمن هذه الوصية قول الله ــ جل وعلا ــ : ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٢)، وفيه يأمر الحق عز اسمه بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وقد ذكر سبحانه ــ وهذا من رحمته ــ أن من أخل بإيفائه من غير قصد منه لذلك فلا حرج عليه لعدم قصده.

فلم يذكر سبحانه فى هذه الوصية عقابا لمن تعمد الإخلال بإيفائهما، ولكنه توعده بالويل فى موضع آخر ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة، وذلك فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٣).

---

(١) زاد المسير جـ٣ صـ١٠٢ .
(٢) الأنعام/ ١٥٢ .
(٣) المطففين ١ ــ ٦ .

وذكر فى موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١)، وقد جاء هذا على لسان شعيب فى الأعراف(٢).

وهذه الوصية تخص المبادلات التجارية والتبايع بين الناس فى حدود التحرى والإنصاف؛ لأن العرب كانوا يبيعون التمر والزبيب كاملا، وكانوا يتوازنون الذهب والفضة، فكانوا يطففون حرصا على الربح، فلذلك أمرهم بالوفاء، وقد ذكر القرطبى ـ رحمه الله ـ فى سر اختيار الأمر بالوفاء عن بعض العلماء قوله : "لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب للغير بما لا يجب عليها أمر المعطى بإيفاء رب الحق حقه الذى هو له، ولم يكلفه الزيادة لما فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقل منه، لما فى النقصان من ضيق نفسه(٣).

ومن اللافت للنظر أن السياق قد ربط هذه الوصية بالعقيدة؛ لأن المعاملات فى هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة، فالذى يوصى بها ويأمر هو الله. ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية وتذكر فى هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة وعلاقتها بكل جوانب الحياة.

ولقد كانت الجاهليات ـ كما هى اليوم ـ تفصل بين العقيدة والعبادات ، وبين الشرائع والمعاملات، من ذلك ما حكاه القرآن

---

(١) الإسراء/ ٣٥ .
(٢) الأعراف / ٨٥ ، وراجع أضواء البيان جـ٢ صـ٢٨١ .
(٣) تفسير القرطبى جـ٧ صـ١٣٦ ، والتحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٥ .

الكريم عن قوم شعيب : ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾ (هود/ ٨٧).

ومن ثم يربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا الموصى الخاص بالعقيدة للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة وبين العبادة والمعاملة فى أنها كلها من مقومات هذا الدين المرتبطة كلها فى كيانه الأصيل[1].

وهذه الوصية زاخرة بأسرار الإعجاز القرآنى ، مما يجعلها تهز المشاعر الراقدة، ببيانها الرفيع، وسحرها الخلاب، وسنحاول أن نضع أيدينا على شىء من ذلك، بوقوفنا على خصائص النظم فى هذه الوصية المباركة .

وأول ما يلقانا فى هذه الوصية، أن الله سبحانه يأمر بإيفاء الكيل والميزان، وعدل عن أن يأتى فيه بالنهى عن التلطيف كما فى قول شعيب ـ عليه السلام ـ:﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[2] إشارة إلى أنهم مأمورون بالحد الذى يتحقق فيه العدل وافيا، وعدم النقص يساوى الوفاء ، ولكن فى اختيار الأمر بالإيفاء اهتماما به لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التنقيص، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذى يتمادحون به، كأنه قيل لهم: أين سخاؤكم الذى تتنافسون فيه، فهلا تظهرونه إذا كلتم أو وزنتم فتزيدوا على العدل بأن توفروا للمكتال كرما بله أن تسرقوه حقه، وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها[3].

والكيل أى المكيل، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول،والميزان كذلك.

---

(١) راجع فى ظلال القرآن جـ٨ صـ١٢٣٣ .
(٢) هود / ٨٤ .
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٥ .

وذكر جمع من العلماء أنهما ـ أى الكيل والميزان ـ الآلة التى يكال بها ويوزن، وأصل الكيل مصدر، ثم أطلق على الآلة، والميزان فى الأصل مفعال من الوزن، ثم نقل لهذه الآلة كالمصباح والمقياس لما يستصبح به ويقاس.

وجوز بعضهم أن يكون هناك مضاف محذوف، أى مكيل الكيل وموزون الميزان[1]، ولا أميل إليه، وقد ذكرت علة ذلك أكثر من مرة فيما سبق.

وقوله تعالى : "بالقسط" أى بالعدل فى الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء.

وهو فى موضع نصب على الحال من فاعل "أوفوا" أى: أوفوهما مقسطين، أى ملتبسين بالقسط، ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى أوفوا الكيل والميزان بالقسط تامين.

ولعل الإتيان بهذه الحال للتأكيد ، أى تأكيد إيفاء الكيل والميزان، وقد ألمح إلى هذا الإمام الفخر الرازى فى قوله : "فإن قيل: إيفاء الكيل والميزان، هو عين القسط فما الفائدة فى هذا التكرير؟

قلنا: أمر الله المعطى بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان، وأوصى صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة[2].

أضف إلى ذلك أن قوله تعالى: "بالقسط" يومئ إلى الغاية والمقصد الذى ينبغى أن يكون عليه إيفاء الكيل والميزان، فينبغى أن يكون هذا الأمر بدافع القسط والعدل، وليس لغرض آخر ـ كالرغبة والرهبة ـ، كما ينبغى أن يسيطر هذا المقصد على الناس ـ كل

(١) راجع الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٩، وروح المعانى جـ٨ صـ٥٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٧ .

الناس ــ وأن يملك عليهم قلوبهم، ويصير خلقا لهم دون تكلف له فى وقت دون وقت.

ولما كانت الدقة فى الكيل والميزان، التى تحقق العدل المطلق قد لا تدخل تحت قدرة الإنسان، رفع الله الحرج فى ذلك وذيل الوصية بقوله: ﴿لانكلف نفسا إلا وسعها﴾ أى: لا نكلف نفسا إلا طاقتها أى ما يسعها ولا تضيق به.

فهذه الجملة جئ بها عقيب الأمر بإيفاء والكيل والميزان بالعدل، لبيان أن مراعاة الحد من القسط، الذى لا زيادة فيه، ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج لصعوبة رعايته، وفيها ترخيص فيما خرج عن الطاقة، لما أن فى مراعاة ذلك حرجا مع كثرة وقوعه، فكأنه قيل: عليكم بما فى وسعكم فى هذا الأمر وما وراءه معفو عنكم[1].

وجوز أن تكون هذه الجملة قد جئ بها لتهوين أمر ما تقدم من التكاليف، وذلك ليقبلوا عليها، فكأنه قيل: جميع ما كلفناكم به ممكن غير شاق ونحن لا نكلف ما لا يطاق[2].

على أن العلماء قد اختلفوا فى حمل هذه الجملة وتسميتها؛ إذ حملها جمع منهم على أنها جملة ــ اعتراضية ــ لا محل لها من الإعراب ــ جئ بها عقيب الأمر بالعدل، للإيذان بأن مراعاة العدل عسير، وهى توحى ــ كما ذكرت ــ بالعفو عما وراء ما فى الطاقة والوسع.

وكلام الزمخشرى يوحى به[3]، لكن أبا السعود، والجمل، والقاسمى ــ وغيرهم ــ قد صرحوا به[4].

---

(١) راجع الكشاف جـ٢ صـ٤٨، وتفسير أبى السعود جـ٢ صـ٢٢١، وتفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨٥.
(٢) روح المعانى جـ٨ صـ٥٥.
(٣) الكشاف جـ٢ صـ٤٨.
(٤) تفسير أبى السعود جـ٢ صـ٢٢١، الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٩، وتفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨٥.

وحملها الطاهر بن عاشور على أنها احتراس، وذكر أن المقصود من هذا الاحتراس، أن لا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة فيفضى ذلك إلى تعطيل منافع جمة.

وذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : أنه يجوز أن تكون هذه الجملة تذييلا للجمل التى قبلها، تسجيلا عليهم بأن جميع ما دعوا إليه هو فى طاعتهم ومكنتهم[1].

وأيا ما كان اسم هذه الجملة، فإنها لون من ألوان الإطناب، وقد أفادت كل هذه المعانى بدون تزاحم.

وفى قراءة ثانية لهذه الجملة من جهة أخرى، نجد أنها قد جاءت بأسلوب قصر، وهو أسلوب قوى متين، لما فيه من توكيد وإيجاز.

وقد آثر التعبير القرآنى طريق النفى والاستثناء، إما لتباطؤ الناس فى تنفيذ هذه الوصايا خشية الغلط أو الغفلة، وقد نزلهم هذا منزلة من ينكر أن هذه التكاليف فى الوسع والطاقة فقال سبحانه: ﴿لانكلف نفسا إلا وسعها﴾ .

ويحتمل أن يكون هذا الطريق لإنكار أن تكون هذه الوصايا فى الوسع؛ لأن الخطاب فيها للجاهليين.

ثم أعد قراءة هذا التذييل ـ أو الاحتراس إلخ ـ مرة ثالثة، وانظر إلى دقة التعبير القرآنى، حيث عدل عن طريق الغيبة الذى بنى عليه المقول ابتداء من قوله: ﴿ما حرم ربكم عليكم﴾ ، إلى طريق التكلم فى قوله: ﴿لانكلف نفسا إلا وسعها﴾ لما فى هذا الاحتراس من الامتنان،

(١) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٥ .

فتولى الله خطاب الناس فيه بطريق التكلم مباشرة زيادة فى المنة، وتصديقا للمبلغ ﷺ ــ والله أعلم بأسرار كتابه.

الوصية الثامنة: الأمر بالعدل فى القول:

وجاءت هذه الوصية فى قول الله ــ جل وعلا ــ : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [1]، وفيها يأمر الحق سبحانه كل الناس بأن يعدلوا فى القول إذا قالوا قولا فى شهادة أو حكم على أحد ، ولو كان المقول فى حقه ذلك القول، صاحب قرابة منهم، وذلك لأن العدل واجب فى الأقوال كما أنه واجب فى الأفعال؛ إذ هو الذى تصلح به شئون الناس، فهو ركن العمران، وأساس الملك وقطب رحى النظام للبشر فى جميع أمورهم الاجتماعية، ومن ثم فلا يجوز لمؤمن أن يحابى فيه أحدا لقرابته ولا لغير ذلك[2].

ولعلنا ندرك المناسبة القوية بين هذه الوصية والوصية السابقة؛ ذلك لأن الوصية السابقة كانت عن إيفاء الكيل والوزن بالقسط، وهذا نوع من العدل الذى اهتم به القرآن الكريم، وهو العدل فى الفعل ، وهذه الوصية قصد بها العدل فى القول.

وقد قدم الأمر بالعدل فى الفعل فى الوصية السابقة، لأنه فى الفعل أولى؛ لأن الضرر الناشىء من الجور الفعلى أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولى.

ومن ثم فلا أرى تخصيص القول بالعدل فى هذه الوصية ؛ لأن الحق ــ سبحانه ــ قدم الأمر بالعدل فى الفعل فى الوصية السابقة[3].

---

(١) الأنعام / ١٥٢ .
(٢) راجع تفسير المنار جـ٨ صـ١٩٢ .
(٣) راجع الفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١٠٩ .

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بتخصيص القول بالعدل دون الفعل فى هذه الوصية، قال الطبرسى ــ رحمه الله ــ : "وإنما خص القول بالعدل دون الفعل؛ لأن من جعل عادته العدل فى القول دعاه ذلك إلى العدل فى الفعل، ويكون ذلك من آكد الدواعى إليه"(١).

والعدل فى القول هو الصدق، وذلك بألا يكون فى القول شىء من الاعتداء على الحقوق بإبطالها أو إخفائها(٢).

وقد عرفه البروسوى تعريفا صوفيا ساميا؛ إذ يقول ــ رحمه الله ــ : "وحقيقة العدل فى الكلام أن يذكر الله ، ولا يذكر معه غيره، وأن يتكلم لله وفى الله وبالله، وهذا لا يتيسر إلا لأرباب التحقيق، فإن كلام غيرهم مشوب بالغرض والدعوى"(٣).

على أن المفسرين قد حملوا القول المأمور بالعدل فيه، على الحكم بين الناس والشهادة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول(٤)، ولذا قال أبوحيان: "وعنى بالقول هنا ما لا يطلع عليه إلا بالقول من أمر وحكم وشهادة زجر ووساطة بين الناس وغير ذلك لكونها منوطة بالقول، وتخصيصه بالحكم أو بالأمر أو بالشهادة أقوال لا دليل عليها على التخصيص"(٥).

ومن ثم فإن الأمر بالعدل فى القول هو أعم من الحكم والشهادة، بل يدخل فيه كل قول حتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الأمانة وغير ذلك من جميع الأقوال التى يعتمد فيها العدل والصدق.

---

(١) مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٤ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٧ .
(٣) روح البيان جـ٣ صـ١١٩ .
(٤) الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٨ .
(٥) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٣، النهر الماد جـ١ صـ٧٧٠ .

وتأمل دقة التعبير القرآنى، حيث جاء طلب الحق فى القول بصيغة الأمر بالعدل دون النهى عن الظلم أو الباطل، وذلك لأنه قيده بأداة الشرط المقتضى لصدور القول، والقول إذا صدر لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا ، والأمر بأن يكون حقا أوفى بمقصد الشارع؛ لأن الله ــ سبحانه ــ يحب إظهار الحق بالقول، وفى الأمر بأن يكون عدلا أمر بإظهار ، ونهى عن السكوت بدون موجب.

وفى التعليق بأداة الشرط فى قوله: "وإذا قلتم" تأكيد للأمر بالعدل فى القول، كما أن فيه إشارة إلى أن المرء فى سعة من السكوت إن خشى قول العدل؛ ولذا فإن من السكوت ما هو واجب.

وقوله عز اسمه: ﴿ولوكان ذا قربى﴾ جملة حالية لتأكيد الأمر بالعدل؛ إذ تفيد (لو) المبالغة فى الحال التى من شأنها أن يظن السامع عدم شمول الحكم إياها لاختصاصها من بين بقية الأحوال التى يشملها الحكم.

فإن حالة قرابة المقول لأجله قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل لنفع قريبه أو مصانعته، فنبهوا على وجوب التزام العدل فى تلك الحالة[1].

وإذا كانت هذه الجملة لتأكيد الأمر بالعدل، فإن فيها ارتفاعا وارتقاء بالضمير البشرى ــ وقد ربطه بالله ابتداء ــ إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته .

فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى، الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والاقتداء بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل، وفى قوة القرابة سند لضعفه، ففى سعة رقعتها كمال لوجوده، وفى امتدادها جيلا بعد جل ضمان لامتداده!

(١) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٧ .

ومن ثم يجعله ضعيفا تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس .

وهنا فى هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه، وهو ـ سبحانه ـ أقرب إلى المرء من حبل الوريد[1].

على أن ذا القربى يدخل فيه ، نفس القائل ووالده وأقربوه، ومن ثم فإن جملة ﴿ولوكان ذا قربى﴾ نظيرة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [2].

ونختم الحديث عن هذه الوصية، بقول بعض الزيدية ـ وهو الطبرسى ـ : وهذه اللفظة من الأوامر البليغة العجيبة فى عذوبة لفظها، وقلة حروفها، وجمعها لأمور كثيرة من الإقرار، والشهادة، والوصايا والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والفتاوى، والأحكام والمذاهب[3].

الوصية التاسعة: الوفاء بالعهد:

وتضمن هذه الوصية قوله سبحانه ـ فى هذه الوصايا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ [4] ، وفيها يأمر الحق ـ جل وعلا ـ بالوفاء بعهد الله ، الذى أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية، كما صرح ـ سبحانه ـ بأنه سيسأل عنه يوم القيامة، إذ يقول ـ عز اسمه : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [5].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٨ صـ١٢٣٣ .

(٢) النساء/ ١٣٥ .

(٣) راجع مجمع البيان جـ٧ صـ٢٣٤، وتفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨٥ .

(٤) الأنعام / ١٥٢ .

(٥) الإسراء / ٣٤ .

كما أكدت السنة المطهرة هذه الوصية، ونكتفي منها في تعظيم شأن هذه الوصية بحديث عبدالله بن عمر المرفوع في الصحيحين وغيرهما : "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر".

وفي تحديد معنى العهد كلام كثير للعلماء، لا يتسع المقام لذكره، لكن ما يهمنا أن نذكره هنا هو أن كثيرا من العلماء قد ذهب إلى أن العهد عام في جميع ما عهده الله إلى عباده، فيدخل فيه كل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق والعهود، وكذلك كل ما أمر الله به في هذه الآيات ونهى عنه، وكذلك جميع الأوامر والنواهي التي عهد الله إلينا التزامها كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١) وقد يتناول المنذور وما يوجبه العبد على نفسه من القرب(٢).

ومن ثم قال البروسوي في تحديد معنى العهد: "وحقيقة العهد أن لا يعبد إلا مولاه ولا يحب إلا إياه ولا يرى سواه"(٣).

وحمله بعضهم على أن المراد به النذور والعهود في غير معصية الله ـ تعالى ـ ، يقول الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ : "وإذ كان الخطاب بقوله: "تعالوا" للمشركين ، تعين أن يدكون العهد شيئا قد تقررت معرفته بينهم، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاة والصلح أو نحو ذلك فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه.

---

(١) يس/ ٦٠ .

(٢) راجع مجمع البيان جـ٧ صـ١٣٧ ، وتفسير القرطبي جـ٧ صـ١٣٧، وفتح القدير جـ٢ صـ٢٥٢، والبحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٣ .

(٣) روح البيان جـ٣ صـ١١٩ .

ومن ثم فالآية آمرة لهم بالوفاء،وكان العرب يتمادحون به،ومن العهود المقررة بينهم: حلف الفضول، وحلف المطيبين، وكلاهما كان فى الجاهلية على نفى الظلم والجور عن القاطنين بمكة، وذلك تحقيق لعهد الله لإبراهيم - عليه السلام - أن يجعل مكة بلدا آمنا ومن دخله كان آمنا، وقد اعتدى المشركون على ضعفاء المؤمنين وظلموهم ... فهو يقول لهم فيما يتلو عليهم إن خفر عهد الله بأمان مكة، وخفر عهودكم بذلك، أولى بأن تحرموه من مزاعمكم الكاذبة فيما حرمتم وفصلتم، فهذا هو الوجه فى تفسير قوله : وبعهد الله أوفوا[1].

فهذا الكلام يوحى بأن عهد الله خاص.

وأميل إلى أن عهد الله المأمور بالإيفاء به عام، يشمل كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله ، وقد اقتضت هذا وأوحت به إضافة العهد إلى الله ؛ إذ الإضافة هنا يصح أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل ، أى بما عهد الله به إليكم من الشرائع أوفوا.

ويصح أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله، أى بما عاهدتم الله أن تفعلوه أوفوا.

ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أى العهد الذى أمر الله بحفظه وحذر من خترة، وهو العهود التى تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد.

ولأجل مراعاة هذه المعانى الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل، وذلك بأن يقال: وبما عاهدتم الله عليه، أو نحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحدا[2].

---

(١) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٦٩ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق، وراجع البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٣، وتفسير أبىالسعود جـ٢ صـ٢٢١، والفتوحات الإلهية جـ٢ صـ١١٠

وتأمل تقديم المجرور : "وبعهد الله" على عامله : "أوفوا" ، وقد حمله كثير من المفسرين على الاهتمام بأمر العهد، وصرف ذهن السامع إليه، ليتقرر فى ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء.

لكنى أميل إلى دلالة هذا التقديم على الحصر، حيث قصر الحق ـ جل وعلا ـ الوفاء على كل ما شرع الله للناس، وكل ما التزمه الناس مما يرضيه، ويوافق شرعه ، دون ما لا يرضى الله من عهد كنذر الحرام والحلف على فعله ومعاهدة الحربيين وغيرهم على ما فيه ضرر للأمة وهضم لمصالحها أو غير ذلك من المعاصى.

فحصر الله الأمر بالوفاء فى الأول الذى يرضيه، ليخرج منه هذا الأخير الذى يسخطه.

وقد ذهب إلى هذا الشيخ رشيد رضا فى تفسيره المنار، ورد بشدة على المفسرين الذين حملوا التقديم على الاهتمام فقال ـ رحمه الله ـ : "ولما لم يظهر الحصر لبعض المفسرين جعلوا التقديم لمجرد الاهتمام الذى هو الأصل فى كل ما يقدم على غيره فى هذه اللغة، وهذا عجز منهم ألجأهم إليه تفسيرهم للعهد بهذه الوصايا أو بكل ما عهد الله إلى الناس على أن تدخل هذه الوصايا فيه دخولا أوليا، والأول باطل والثانى قاصر.

أما بطلان الأول، فلأن الوفاء بالعهد من الوصايا المقصودة المعدودة وله معنى خاص، فلا يصح أن يجعل عين ما قبله.

وأما قصور الثانى فظاهر مما ذكرنا من سائر أنواع العهد بالشواهد من القرآن فالعهد إذا عام ..."[1].

فتقديم الجار والمجرور إذا يفيد الحصر. والله أعلم بمراده.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2] .

---

(١) تفسير المنار جـ٨ صـ١٩٣ .

(٢) الأنعام/ ١٥٢ .

ثم يجئ هذا التعقيب القرآنى بعد هذه التكاليف الأربعة التى أمر بها الحق ــ سبحانه ــ ، وقد وقفنا على أغلب خصائص النظم فيه، عند وقوفنا مع تذييل الآية الأولى من هذه الوصايا؛ ولذا فلن نطيل الوقوف مع ما سبق ذكره .

فقوله سبحانه : "ذلكم" إشارة إلى ما فصل من الأوامر الأربعة، وقد وقفت على معنى البعد الموجود فيها، وكذلك كاف الخطاب وميم الجمع .

وقوله"وصاكم"أى أمركم أمرا مؤكدا،وقوله تعالى:﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى وصاكم الله بهذا رجاء أن تتذكروا ما فى تضاعيفها، وتعملوا بمقتضاها أو رجاء أن تتعظوا بها وتنتهوا عما كنتم فيه قبل هذا .

وقد قرأه حمزة والكسائى وحفص عن عاصم ﴿تذكرون﴾ مخففة من الذكر والباقون بالتشديد من التذكر، وأصله تتذكرون، وليس معناهما واحدا كما قيل[1]؛ لأن الصيغ من المادة الواحدة تعطى معانى خاصة، ويتجوز فى بعضها ما لا يصح فى بعض .

فالذكر نقيض النسيان، وهو يطلق فى الأصل على خطور معنى الشىء فى الذهن، يسمى ذكر القلب، وعلى النطق باللفظ الدال عليه ويسمى ذكر اللسان، ويستعمل مجازا بمعنى الصيت والشرف، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [2] ويطلق بمعنى العلم وبه يسمى القرآن وغيره من الكتب الإلهية ذكرا ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [3].

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٨ ، وزاد المسير فى علم التفسير جـ٣ صـ١٠٢ .

(٢) الزخرف / ٤٤ .

(٣) النحل/ ٤٣ .

وأما التذكر فمعناه تكلف ذكر الشىء فى القلب أو التدرج فيه بفعله المرة بعد المرة، ويطلق حينا على الاتعاظ والتدبر كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[1]،وقال:﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾[2].

ولعل الحكمة من هاتين القراءتين هنا، هى إفادة المعانى التى تدلان عليها بلا تزاحم ، وهذا من باب الإيجاز البليغ.

ومن اللافت للنظر أن الله ــ تعالى ــ جعل خاتمة الآية الأولى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وخاتمة هذه الآية: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، وهذا ملمح من ملامح الإعجاز فى هذه الوصايا، وقد حاول جمع من العلماء الكشف عن سر هذا الإعجاز، فذكر الفخر الرازى ــ رحمه الله ــ أنه لما كانت التكاليف الخمسة المذكورة فى الآية الأولى أمورا ظاهرة جلية، وجب تعقلها وتفهمها، فختمت بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وأما التكاليف الأربعة المذكورة فى هذه الآية، فأمور خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال، فلهذا السبب قال سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [3].

وذكر الطاهر بن عاشور وجها آخر فقال : "وجاء مع هذه الوصية بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ لأن هذه المطالب الأربعة عرف بين العرب أنها محامد؛ فالأمر بها، والتحريض عليها، تذكير بما عرفوه فى شأنها ولكنهم تناسوه بغلبة الهوى وغشاوة الشرك على قلوبهم[4].

---

(١) غافر/ ١٣ .

(٢) الأعلى/ ١٠، وراجع تفسير المنار جـ٨ صـ١٩٣، وتفسير المراغى جـ٨ صـ٧٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٨، البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٣ .

(٤) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٧٠ .

الوصية العاشرة: الأمر باتباع صراط الله المستقيم:

وجاءت هذه الوصية خاتمة لهذه الوصايا،وقد تضمنها قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وفيها يأمر الحق سبحانه باتباع طريقه المستقيم، ومنهجه القويم، ويحذر من اتباع غير هذا السبيل.

ومن الملاحظ فى بيان وجه مناسبة هذه الوصية للوصايا السابقة ـ أنه تبارك وتعالى لما بين فى الآيتين السابقتين، ما وصى به عباده، ذكر ـ سبحانه ـ فى هذه الآية قولا أجمل فيه كل ما تقدم تفصيله من الوصايا، ويدخل فيه ـ أيضا ـ كل ما أمر الله به ونهى عنه، وكذلك كل ما بينه الرسول ـ ﷺ ـ من دين الإسلام، وهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم، الذى أمر الله باتباعه جملة وتفصيلا[2]، ونهى عن العدول عنه؛ لأن العدول عنه يؤدى إلى الوقوع فى الضلالات المهلكات.

ومما يجب التنبيه إليه قبل الوقوف مع خصائص النظم فى هذه الوصية، هو أن أبا السعود ـ رحمه الله ـ يرى أن هذه الوصية ليست العاشرة،فإنه قبل أن يذكر الآية:﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾، قال: "وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار"[3].

وكأنه رأى أن لا يعد الكيل والميزان وصية واحدة، بل وصيتين ويكون اتباع الصراط المستقيم وصية جامعة لكل هذه الأحكام العشرة، وصية مستقلة.

---

(١) الأنعام/ ١٥٣ .

(٢) راجع الفخر الرازى جـ١٤ صـ٤ .

(٣) أبو السعود جـ٢ صـ٢٢٢ .

إلا أن جمهور المفسرين يرى أنها من تمام العشرة، وأن ما سبق تسع وصايا.

والحق مع جمهور المفسرين، فإن الوفاء بالكيل والميزان لا يمكن أن يكون وصيتين،ولعل هذا ما يفهم من توجيه الأمر لتوفيتهما معا حيث قال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (١).

وربما أوقع أبا السعود فى هذا أن الصراط المستقيم عام، ومن ثم فلا يمكن جعله وصية مستقلة .

ولكن أليس العدل فى القول عاما، وأنه لابد من الاعتدال فى كل الأمور؟ والوفاء بالعهد : أليس ــ كذلك ــ عاما ؟!

وتوحيد الله، وبر الوالدين، والمحافظة على النفس البشرية والبعد عن أكل مال اليتيم، وتوفية الكيل والميزان، والعدل فى القول والعمل ، كل ذلك من الوفاء بالعهد .. فلا عجب أن ينتقل القرآن إلى وصية جامعة هى: وجوب اتباع صراط الله المستقيم والابتعاد عن سبل الشيطان(٢).

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ الواو فيه عاطفة وهو معطوف على قوله: ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ، فهو فى موضع نصب بفعل : "أتل" والتقدير : "وأتل عليكم أن هذا صراطى مستقيما"، وذكر الطاهر بن عاشور أنه معطوف على جملة : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ لتماثل المعطوفات فى أغراض الخطاب وترتيبه، وفى تخلل التذييلات التى عقبت تلك الأغراض، و(أن) حينئذ تفسيرية، ووجه إعادتها، اختلاف أسلوب الكلام عما قبله(٣).

---

(١) الأنعام / ١٥٢ .
(٢) الوصايا العشر صـ٢١٣ بتصرف للدكتور عبدالفتاح عاشور.
(٣) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٧١ .

و(أن) فى هذا النظم الجليل فيها وجوه، حيث قرئت بتشديد النون وإسكانها مع فتح الهمزة، وبتشديد النون مع كسر الهمزة.

فعلى تشديد النون وفتح الهمزة هى فى موضع نصب . أى: وأتل أن هذا صراطى. قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضا أى وصاكم به وبأن هذا صراطى، وتقديرها عند الخليل وسيبويه: ولأن هذا صراطى، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ (١).

والمخففة مثل المشددة، إلا أن فيه ضمير القصة والشأن، أى: وأنه هذا، فهى فى موضع رفع، ويجوز النصب ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد، كما قال ــ عزوجل ــ : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ (٢).

أما على الكسر، فهى على الاستئناف أى الذى ذكر فى هذه الآيات : صراطى مستقيما(٣).

ومن هنا يتجلى لنا ترابط النظم فى هذه الوصايا.

والمشار إليه بهذا، الإسلام ــ وهو شرعه عليه الصلاة والسلام ــ أو القرآن، أو ما ورد فى هذه السورة بأسرها من إثبات التوحيد والنبوة، وبيان الشريعة؛ لأنها كلها فى التوحيد وأدلة النبوة وإثبات الدين.

أو إلى هذه الآيات التى اعتقبتها هذه الآية؛ لأنها المحكمات التى لم تنسخ فى ملة من الملل(٤).

وسواء أكان المشار إليه الإسلام أم غيره، فإن فى الإشارة إليه تمييزا له أكمل تمييز؛ لأن الإشارة لا تكون إلا إلى حاضر مشاهد،

---

(١) الجن / ١٨ .
(٢) يوسف/ ٩٦ .
(٣) القرطبى جـ٧ صـ١٣٧، الكشاف جـ٢ صـ٤٩ .
(٤) راجع البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٤، أبوالسعود جـ٢ صـ٢٢٢، روح المعانى جـ٨ صـ٥٦ .

فنزل المشار إليه منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة، وذلك لأنه حاضر فى أذهان المخاطبين من أثر تكرر نزول القرآن وسماع أقوال الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بحيث عرفه الاس وتبينوه[1].

واسم الإشارة القريب يؤذن بتعظيم المشار إليه، وقربه من النفوس.

والصراط المشهور عند اللغويين أنه مشتق من سرط الشىء إذا ابتلعه بلعا سهلا فسمى الطريق صراطا؛ لأنه يسرط المارة[2].

والصراط:الطريق الذى جمع خمسة أوصاف هى أن تكون طريقا سهلا، مسلوكا واسعا، موصلا إلى المقصود، فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطا ولا الصعب الشاق ولا المسدود غير الموصل.

ومن تأمل موارد الصراط فى لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك.

والمراد به هنا الإسلام، وقد دل على ذلك قوله تعالى فى آخر السورة: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾ [3] فقد استعير الصراط للإسلام، وفى هذه الاستعارة تجسيد وتشخيص للإسلام، حيث جعله كالطريق الواضحة البينة.

ولما شبه الإسلام بالصراط، وجعله كالشىء المشاهد، ذكر أنه مستقيم ــ وهذا من ترشيح الاستعارة ــ أى لا اعوجاج فيه؛ لأن الطريق المستقيم أيسر سلوكا على السائر وأسرع وصولا به[4].

---

(١) التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٧٢ .
(٢) اللسان : مادة سرط.
(٣) الأنعام/ ١٦١ .
(٤) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٧٢ .

وتأمل إضافة الصراط إلى ياء المتكلم، فإن فيها إغراء باتباعه وحثا عليه.

وهذه الياء تعود على الله ــ تبارك وتعالى ــ ، كما بينه قوله ــ سبحانه ــ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ (١) ، ويؤيده قراءة ﴿وهذا صراطربكم﴾ ، و﴿وهذا صراطربك﴾ (٢).

وقد عدل عن طريق الغيبة الذى جرى عليه الكلام فى قوله : ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ لغرض الإيماء إلى عصمة هذا الصراط من الزلل؛ لأن كونه صراط الله يكفى فى إفادة أنه موصل إلى النجاح ؛ ولذلك صح تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله.

ويجوز عود الياء إلى النبى المأمور بالقول،إلا أن هذا يستدعى بناء التفريع بالأمر باتباعه على ادعاء أنه واضح الاستقامة، وإلا فإن كونه طريق النبى ــ صلوات الله عليه ــ لا يقتضى تسبب الأمر باتباعه عنه بالنسبة إلى المخاطبين المكذبين(٣).

ولعل المراد من إضافة الصراط إلى النبى هو بيان أن ما فصل من الأوامر والنواهى غير مختصة بالمتلو عليهم، بل متعلقة به ــ عليه الصلاة والسلام ــ أيضا، وأنه ــ ﷺ ــ مستمر على العمل بها ومراعاتها؛ وهذا أدعى لاتباع هذا الصراط؛ إذ به يتضح كونه صراط الله ــ عزوجل ــ .

على أن إضافة الصراط إلى الله ــ عزوجل ــ من حيث الوضع، وإليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ من حيث السلوك والدعوة.

وقوله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿مستقيما﴾ حال من اسم الإشارة، وحسن وقوعه حالا، أن الإشارة بنيت على ادعاء أنه مشاهد،

(١) الشورى/ ٥٢ ــ ٥٣ .
(٢) الكشاف جـ٢ صـ٤٩، روح المعانى جـ٨ صـ٥٦ .
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٧٣ .

فيقتضى أنه مستحضر فى الذهن بمجمل كلياته، وما جربوه منه وعرفوه، وأن ذلك يريهم ـ أنه فى حال الاستقامة كأنه أمر محسوس، ولذلك كثر مجئ الحال من اسم الإشارة نحو: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ (١) ولم يأتوا به خبرا.

وهذه الحال مؤكدة لما أوحى به الصراط؛ لأن صراطه ـ تعالى ـ لا يكون إلا مستقيما أى مستويا قويما لا اعوجاج فيه.

وقد فرع النظم الجليل على ذلك الأمر باتباع هذا الطريق الذى شرعه على لسان نبيه ـ صلوات الله عليه ـ فقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ .

فهذا أمر منه باقتفاء أثر صراطه والعمل به، ونهى عن اتباع السبل الأخرى، والمراد بها الضلالات ، أو الأديان المختلفة كاليهودية والنصرانية أو البدع والشبهات، أقوال ذكرها المفسرون(٢).

وقد جاءت هذه الوصية جامعة بين الأمر بالحق، والنهى عن مقابله وهو الباطل : ﴿فاتبعوه ولا تتبعوا﴾ .

ويسمى هذا عند علمائنا الأجلاء بطباق السلب، وهو الذى يجمع فيه بين فعلين لمصدر واحد، أحدهما أمر والآخر نهى.

وهذا الطباق يوحى بتأكيد الأمر باتباع صراط الله المستقيم ـ لأن كل أمر ـ كما هو مقرر عند عدول هذه الأمة ـ يحمل فى طياته نهيا عن ضد المأمور به، وكل نهى يحمل فى طياته أمرا بضد المنهى عنه، فكأنه أمر باتباع صراط الله مرتين، ونهى عن اتباع السبل الأخرى مرتين وفى هذا من التأكيد ما فيه، وهذا يناسب مقام الأمر بالتزام صراط الله وسبيله الذى ليس وراءه إلا السبل التى تتفرق بمن يسلكونها .

---

(١) هود/ ٧٢ وراجع المصدر السابق.
(٢) راجع الكشاف جـ٢ صـ٤٩ .

ثم لاحظ هذه المقابلة بين الصراط المستقيم والسبل المتفرقة؛ لأن السبل تعنى الطرق، ووقوعها فى مقابلة الصراط المستقيم يدل على صفة محذوفة، أى السبل المتفرقة غير المستقيمة، وهذه المقابلة توحى بمدح صراط الله، والتشنيع على السبل الأخرى، وذلك للترغيب فى الأولى، والتنفير من الثانية، ولذا سبب عن النهى قوله : ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ أى فإنها طرق متفرقة تجع سالكها متفرقا عن السبيل الجادة، وليس ذلك لأن السبيل اسم للطريق الضيقة غير الموصلة، فإن السبيل يرادف الصراط ألا ترى إلى قوله : ﴿قل هذه سبيلى﴾ بل لأن المقابلة والإخبار عنها بالتفرق دل على أن المراد سبل خاصة موصوفة بغير الاستقامة(١).

وتأمل من ناحية أخرى دقة التعبير القرآنى حيث أفرد الصراط المستقيم، وهو سبيل الله تبارك وتعالى، وجمع السبل المخالفة له، وفى هذا إيماء إلى أن الحق واحد لا تعدد فيه ، أما الباطل فنو صور شتى وأنحاء متعددة، وذلك لأن الحق مصدره الله وحده، والباطل مصادره الأهواء، ومتابعة الشهوات والنفوس.

وإفراد الصراط هنا وجمع السبل شبيه بإفراد النور وجمع الظلمات فى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ (٢).

ومما ينبغى أن يسجل فى هذا المقام، أن القرآن لم يأت بكلمة الصراط إلا مفردة، فلم يستعملها مجموعة بخلاف السبيل، فإنه يفردها ويجمعها ذلك أن الصراط هو أوسع السبل، وهو الذى تفضى

(١) راجع التحرير والتنوير جـ٨ صـ١٧٣ .
(٢) البقرة / ٢٥٧، وراجع تفسير ابن كثير جـ٨ صـ٢٥٧ .

إليه السبل ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ (١) فجعله صراطا واحدا، وهو صراط مستقيم ثم قال : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (٢) فذكر السبل بالجمع وهى طرق الخير المتعددة فى الإسلام، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٣) ، فجعل له سبلا متعددة فى حين لم يجعل له إلا صراطا واحدا، وهو الصراط المستقيم.

وذكر صاحب التفسير القيم أن الصراط المستقيم جاء فى القرآن الكريم منفردا معرفا بتعريفين: تعريف باللام، وتعريف بالإضافة، وذكر أن ذلك يفيد تعيينه واختصاصه وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ .

فوحد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب فالطريق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد(٤) أهـ.

---

(١) الأنعام/ ١٥٣ .
(٢) المائدة/ ١٦ .
(٣) العنكبوت/ ٦٩ .
(٤) التفسير القيم صـ١٤، ١٥، وراجع لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل صـ٦٠ للدكتور فاضل صالح السامرائى ط دار عمار .

قلت: إن الحق ــ جل وعلا ــ سبب عن النهى قولــه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ ﴾ قوله : ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، وهو منصــوب بإضمار (أن) بعد الفاء فى جواب النهى، وكأن المعنى:

ولا تتبعوا الطرق المختلفة والأهواء المضلة فتميل بكــم هــذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذى ارتضاه لعباده.

وأصل : "تفرق" تتفرق، فحذفت إحدى التائين، والباء فى (بكم) للتعدية ، أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبأ، وهو كما ترى أبلــغ من تفرقكم، وذلك لما فيه من الدلالة على معنى الاستصحاب[1].

والضمير المضاف إليه فى قوله: "سبيله" يعود إلى الله تعــالى بقرينة المقام ، فإذا كان ضمير المتكلم فى قوله : "صراطى" عائدا إلى الله كان فى ضمير "سبيله" التفات من التكلم إلى الغيبة[2]، وفى هــذا الالتفات تعظيم لصراط الله المستقيم وهو دين الإسلام.

وإذا كان ضمير المتكلم فى قوله : "صراطى" عائدا إلى النبى ــ صلوات الله عليه ــ فإن فى قوله : "سبيله" ــ يعود الضمير إلى الله تعالى ــ تنبيها على أن صراطه ــ عليه الصلاة والسلام ــ هو عين سبيل الله ــ تعالى ــ .

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وهذا التذييل جعله الحق ــ عزوجل ــ ختاما لهــذه الوصــية الجامعة التى ختم الله ــ عزوجل ــ بها الوصايا العشر ، وهو تكرير لمثليه السابقين، وقد كررت التوصية فيــه علــى ســبيل التوكيــد، والإشارة إلى الصراط المستقيم.

(١) روح المعانى جـــ٨ صـــ٥٧ .
(٢) التحرير والتنوير جـــ٨ صـــ١٧٤ .

وقد ختمت هذه الآية بهذه الفاصلة، وهى رجاء التقوى، والتقوى: هى اتقاء النار ـ؛ لأن من اتبع هذا الطريق ونهج هذا الصراط نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية[1].

على أن كلمة التقوى تشمل كل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه، وقد ذكرت فى التنزيل فى سياق الأوامر والنواهى المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وقتال وسنن اجتماع، وطعام وشراب، وعشرة وزواج، وغير ذلك، وهى تفسر فى كل موضع بحسبه.

لكنها فى هذا الموضع تشمل جميع الأنواع؛ لأنها جاءت فى سياق اتباع صراط الله المستقيم الشامل لجميع أنواع الهداية الشخصية والاجتماعية[2].

(١) راجع البحر المحيط جـ١ صـ٧٧١ .
(٢) تفسير المنار جـ٨ صـ١٩٧ .

من ملامح الإعجاز القرآنى فى الوصايا العشر

ويعد هذه الرحلة المباركة التى وقفنا فيها مع هـذه الوصـايا نحاول أن نتأمل بلاغتها، وأن نقف على سمو التعبير فيها.

تأكد لنا أن للقرآن الكريم روعة تهز النفوس، وسحرا تخشـع له القلوب، وهذا ما أكده القرآن فى غير موضع.

كما تبين لنا أن التعبير القرآنى تعبير فريد فى علوه وسـموه، وأنه أعلى كلام وأرفعه .

فقد تجلت لنا من خلال جولتنا مع هذه الوصايا المباركة ميـزة النظم القرآنى وإحكامه فى اختيار المعـانى والألفـاظ، والمفـردات والتراكيب بما يناسب وحدة السورة وروحها ووحدة النسق فى نظـم الآيات والغرض المقصود.

أما ما يخص جانب المعانى، فإن هذه الآيات قد اشتملت علـى عشر خصال جامعة للخير كله لم ينسخهن شىء من جميـع الكتـب، فهن محرمات على بنى آدم كلهم لم يختلفن باختلاف الأمم والأعصار من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار.

وقد قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : "هذه الآيات هـى المحكمات التى ذكرها الله فى سورة آل عمـران ، أجمعـت عليهـا شرائع الخلق ولم تنسخ قط فى ملة"(١).

ومجمل القول أن هذه الوصايا تشتمل على أسس صلاح المجتمع؛ لأن فيها بيان أصول المحرمات كلها ــ وهذا يستلزم حل ما عـداها لأنه الأصل ــ وقد صرح بأصول الواجبات من هذا الحلال العام.

ومن ثم فهى تناسب المخاطبين ــ وهم المشركون ــ المخالفين لها ، والمنغمسين فيما هو ضدها تمام المناسبة ، كما أنهـا تناسـب

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٥١، والبحر المحـيط جـ٤ صـ٢٤٩

ما سبق فى سياق السورة من إنكار أن يحرم غير الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأن فيها ـ كما ذكرت ـ أصول المحرمات، وأصول الواجبات، والمشرع فيها هو الله، لا غيره.

أما فيما يخص جانب الألفاظ فإن ألفاظ القرآن عموما لم توضع عبثا ولا من غير حساب، بل هى موضوعة وضعا دقيقا بحساب دقيق وإن شئت قل معجزا، وقد لاحظت أن للقرآن خصوصيات فى استعمال الألفاظ، فقد اختص كثيرا من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح فى التعبير.

كما تبين لنا مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختيارا دقيقا ويضعها وضعا فنيا عجيبا ، وأن التشابه والاختلاف فى قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام، وأنه لم يترك وجها من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس فى سياق الآية وحدها ولا فى جو السورة وحدها بل فى عموم القرآن،فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين[1].

وفيما يخص جانب الجمل والتراكيب، فقد اتضح لنا مما تقدم ـ أيضا ـ أن نظام تركيب الجملة القرآنية نظام محكم يراعى فيه أن يكون صالحا لتأدية المعنى على أكمل الوجوه، وأن يكون متآلفا متناسبا مع النظم القرآنى فى السياق المعنوى فى كل مقام، والوفاء بهذين الغرضين فى النظم هو أعلى مراتب البلاغة التى تنقطع دونها أعناق البلغاء.

ولهذا الغرض المزدوج تقدم بعض عناصر الجملة القرآنية وتؤخر أخرى وتحذف عناصر أو تذكر.

وقد حاولنا من خلال وقوفنا مع النظم الجليل فى هذه الوصايا أن نبين بعض أوجه التناسب المعنوى اللطيف فى اختيار تركيب

---

(١) التعبير القرآنى د/ فاضل صالح السامرائى صـ٢١٦ ط دار عمار.

الجملة القرآنية لكن يجب أن نعترف بأن الإحاطة بأسرار القرآن من هذا الوجه غاية بعيدة المنال لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله[1].

ومن ثم فسوف اكتفى بما هدانى الله ـ عزوجل ـ إليه، وفتح به على فى المحور الأول فيما يخص جانب المعانى والألفاظ والجمل، وسأجعل حديثى فى قضيتين : وهما:

١ - منهج القرآن فى عرضه هذه الوصايا.

٢ - فواصل الوصايا .

١ـ منهج القرآن فى عرضه لهذه الوصايا:

من المعلوم والمسلم به أن التعبير القرآنى كله، تعبير معجز، كل لفظة، بل كل حرف فيه وضع وضعا معجزا، ولم تراع فى هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها، بل روعى فى هذا الوضع التعبير القرآنى كله، فهو إعجاز مطلق؛ لأنه معجز فى كل شىء ، ولن أغالى إذا قلت: إن كل حرف، وكل كلمة، وكل جملة فى التركيب القرآنى تشير إلى عظمة وسر إعجازه، كما أنه معجز فى جمعه، وفى ترتيبه، وفى المتلقى، وفى السامع لما فيه من إعجاز فكرى، ولغوى، وبلاغى، واقتصادى، وسياسى، واجتماعى، ليس فى طاقة البشر الإحاطة به؛ لأنه:﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2].

وقد حاولت هذه الدراسة أن تقف مع هذا الكتاب الخالد المعجز لتكشف الستار عن بلاغته وسمو تعبيره،وتميط اللثام عن بعض أسرار إعجازه وهذا محدود بقدر طاقة صاحبها وعمق إيمانه،وإن كنت أومن بأن كل محاولة فى دراسة الظاهرة الإعجازية تبقى دون الوصول إلى ما فيها؛ لأنها تجاوزت كل طاقة إنسانية لمعرفة وتدبر سره الخلاق،وسر تركيبه ونظمه،فأنى لباحث ضعيف مثلى هذا الإدراك؟!!

---

(١) راجع التناسب البيانى فى القرآن د/ أحمد أبوزيد صـ٢١١ .

(٢) سورة فصلت / ٤٢، الإعجاز النحوى صـ٧ .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ومما يتصل بهذا الإعجاز، ويعتبر ملمحا من ملامحه، فى هذه الآيات ــ التى تضمنت الوصايا العشر ــ هو طريقة عرض القرآن الكريم لهذه الوصايا.

وقد لفت هذا الأمر أنظار علمائنا الأجلاء منذ القدم، وحاولوا أن يعللوا له، ويكشفوا الستار عن بلاغته، وأردت أن أزاحم خدمة العلم وكتاب الله بالوقوف مع هذه القضية، التى يتجلى فيها الإعجاز القرآنى بصورة واضحة جلية.

تأمل هذه الوصايا، وعش بعقلك فيها متزودا بزاد الإيمان ــ تجد أنها عشر ــ قد تضمنتها ثلاث آيات ــ على رأى الجمهور ــ واللافت للنظر أن خمسا منها جاء بصيغة النهى، وخمسا جاء بصيغة الأمر،ولما وردت الأوامر مع النواهى، وتقدمهن جميعا فعل التحريم، واشتركن فى الدخول تحت حكمه،علم أن التحريم راجع إلى أضدادها، وهى الإقرار بوجود الله وتوحيده، والإساءة إلى الوالدين، وبخس الكيل والميزان، وترك العدل فى القول، ونكث عهد الله.

وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا أعم؛ لأن بيان المحرمات يستلزم حل ما عداها، وقد بدأها بأكبر المحرمات وأعظمها، وأشدها إفسادا للعقل والفطرة، وهو الشرك بالله بأية صورة من صوره(٢).

وعقبه بالإحسان إلى الوالدين؛ إذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة الله فى الإيجاد والربوبية، لأنهما سببان قريبان فى الوجود والتربية، وواسطتان جعلهما الله ــ تعالى ــ مظهرين لصفتى إيجاده وربوبيته،

(١) لقمان/٢٧،وراجع الإعجاز النحوى فى القرآن الكريم صـ٨،٧.
(٢) تفسير المراغى جـ٧صـ٦٦،والتفسير المنير جـ٧صـ١٠٢.

فعقوقهما يلى الشرك، ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله ــ تعالى ــ ومعرفة صفاته.

ولما بين حق الآباء، أردفه بحق الأبناء، فنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر؛ لأن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه ــ تعالى ــ الرزق لكل مخلوق، وأن أرزاق العباد بيده يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

ثم نهى عن رذيلة القوة البهيمية، وهى الزنا، وذلك لأن الفواحش مع كونها فى نفسها جناية عظيمة، فإنها فى حكم قتل الأولاد؛ لأن أولاد الزنا فى حكم الأموات.

ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية فقال : ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ وهذا نهى عن قتل النفس المفردة[1].

ومن الملاحظ أن هذه الوصايا الخمس تخص الحفاظ على النفس ــ وهى قوام المجتمع ــ بعد ربط ذلك بخالقها ــ سبحانه وتعالى ــ، ثم أشار السياق القرآنى إلى نوع جديد من المحرمات يرجع إلى حفظ قواعد التعامل بين الناس لإقامة قواعد المجتمع الإسلامى وتحقيق الثقة بين الناس.

وقد بدأ بحفظ حق الضعيف الذى لا يستطيع الدفع عن حقه فى ماله وهو اليتيم.

ثم بإيفاء الكيل والميزان، ثم بالعدل فى الشهادات والحكم بين الناس، والأول عدل فى الفعل، والثانى عدل فى القول.

ثم أمرهم بالوفاء بالعهود والمواثيق التى بينهم وبين الله، والتى بينهم وبين الناس.

ثم إنه ــ تعالى ــ لما بين فى الآيتين الأولى والثانية ما وصى به خلقه أجمل فى الآية الثالثة إجمالا يقتضى دخول كل ما تقدم فيه،

(١) راجع تفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨.

ودخول سائر الشريعة فيه فقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

فدخل فيه كل ما بينه الرسول ـ ﷺ ـ من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم، وكأنه يأمر باتباع جملته وتفصيله، وينهى عن العدول عنه حتى لا تقع الناس فى الضلالات.

فالعرض معجز، والترتيب معجز، وسبحان العليم بأسرار كتابه.

٢ـ فواصل الوصايا :

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة، تنتهى بفواصل منسجمة موسيقيا بعضها مع بعض مثل: "تعلمون، تؤمنون، تتقون"، ومثل : "خبيرا، كبيرا، عليما، حكيما".

ومن الملاحظ أن القرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر فى النفس، فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة، ومرة يؤخرها انسجاما مع فواصل الآيات، وقد ترى أنه يحذف شيئا من الكلم لتنسجم مع فواصل الآى، إذ لو أبقى المحذوف لم ينسجم.

وقد يزيد شيئا فى الكلمة للغرض نفسه، وقد نرى أنه يبدل كلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآى فى كل من الموطنين مختلفة فيجعل فى نهاية كل آية ما ينسجم موسيقيا مع أخواتها.

وهذه التعقيبات التى ترد فى خواتيم الآيات أو فى أعقاب القصص القرآنى تمثل سمة بارزة من سمات الأسلوب القرآنى، ووجها فائقا من أوجه بلاغته، وذلك لأنها تجمع بين وظائف معنوية

(١) الأنعام/ ١٥٣ .

لكونها تزيد معانى الآيات بيانا وإيضاحا ووظائف جمالية لكونها تمهد للتناسب الإيقاعى فى رؤوس الآيات وفى فواصلها.

والمراد بالتعقيب على الآيات ذلك الجزء أو المقطع الذى يأتى فى ختامها تذيل به الآية زيادة فى البيان ومحافظة على وحدة الإيقاع(١).

ومما يتصل بهذا الموضوع، وجاء لافتا للنظر، تلك التذييلات التى ذيلت بها الوصايا العشر التى تضمنتها هذه الآيات الثلاث حيث ذيلت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وذيلت الثانية بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وذيلت الثالثة بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ومن المسلم به أن هذا الاختيار وذلك الترتيب لا يمكن أن يكون عشوائيا أو للتفنن فى التعبير، وإنما هو موضوع وضعا دقيقا معجزا.

ومن هنا فقد وقف علماؤنا عند هذا الاختيار وذلك الترتيب وأطالوا الوقوف، واعتبروهما ملمحا من ملامح الإعجاز، كما حالوا أن يطلوا لهذين الأمرين، وقد ذكرنا طرفا من كلامهم ــ رحمهم الله جميعا ــ فيما سبق، ونحاول هنا أن نقف مرة أخرى بإيجاز؛ لأننا مهما ذكرنا فسيبقى التعبير القرآنى بعيد المدى والمنال.

لأننا أمام إعجاز مذهب لا تستطيع البشر مهما أوتوا من علم وقدرة خارقة إلا أن يقفوا عاجزين عن إدراكه مذهولين ببيانه، وفصاحته، فهو بحر زاخر، لا قرار له ولا ساحل، لكنه محبب للنفس والقلب، يهز الوجدان، ويبعث الطمأنينة والسكينة لمن قرأ فيه، وآمن بتعاليمه وعاش فى كنفه، وتحت ظلاله.

---

(١) راجع التناسب البيانى فى القرآن صـ٢١٧، ٢٣٥ .

تأمل معى تذييل هذه الآيات الثلاث تجد أن كل آية منها قد ختمت بالوصية ليكون ذلك آكد فى القول وألطف، فيكون أدعى للقبول، وختم كل واحدة منها بما ختم؛ لأنه إذا كان العقل دعا إلى التذكير فحمل على التقوى، وقد أشار إلى هذا الإمام النسفى رحمه الله فى قوله: "ذكر أولا (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون)؛ لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا أى اتعظوا، فاتقوا المحارم[1].

وهذا الكلام يوحى بأن ترتيب هذه الفواصل، ترتيب معجز، وليس ترتيبا عشوائيا؛ لأن به مناسبة واضحة يدركها من عنده زاد من الإيمان.

أما عن اختيار كل فاصلة تذييلا للوصايا السابقة عليها، فقد ذكر الإمام الفخر الرازى ــ وهو أول من وقف ند هذا ــ أن السبب فى ختم كل آية بما ختمت أن التكاليف الخمسة المذكورة فى الآية الأولى ظاهرة جلية ، فوجب تعقلها وتفهمها ، ومن ثم ختمت بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

والتكاليف الأربعة المذكورة فى الآية الثانية خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال، وهو التذكر، ولذا ختمت بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2].

ولما كان ــ وهذا من إضافات أبى حيان ــ الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر تعالى باتباعه، ونهى عن بنيات الطريق ختم ذلك بالتقوى التى هى اتقاء النار؛ إذ من اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية[3].

---

(١) تفسير القاسمى جـ٦ صـ٧٨٨ .
(٢) الفخر الرازى جـ١٣ صـ٢٤٦ .
(٣) البحر المحيط جـ٤ صـ٢٥٤ .

وذكر ابن عطية ــ رحمه الله ــ فى نكت هذه الفواصل: "ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، والمحرمات الأخر شهوات، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، جاءت العبارة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وركوب الجادة الكاملة ، تتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى جاءت العبارة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

وذكر الألوسى ــ رحمه الله ــ ثلاثة أقوال، أحدها للفخر الرازى وقد ذكرته آنفا، والثانى له ، والثالث للقطب الرازى، وهو أفضل ما كتبه علماء البلاغة فى نكت هذه الخواتيم للآيات الثلاث .

أما ما ذكره الألوسى لنفسه فقوله: ويمكن أن يقال: إن أكثر التكليفات الأول أدى بصيغة النهى، وهو فى معنى المنع والمرء حريص على ما منع فناسب أن يعلل الإيصاء بذلك بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس، وهذا بخلاف التكليفات الأخر فإن أكثرها قد أدى بصيغة الأمر وليس المنع فيه ظاهرا كما فى النهى، فيكون تأكيد الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر إذا نسى فليتدبر".

فقد بنى كلامه على أن النهى يناسبه العقل؛ لأن كلاهما فيه منع، والأمر طلب ويناسبه الذكر، وهذا ملمح جيد .

وأما ما نقله عن القطب الرازى فقوله : "وختمت الآية الأولى بقوله سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وهذه بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد، وقربان الزنا، وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها فنهاهم سبحانه لطفهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها .

(١) المصدر السابق جـ٤ صـ٢٥٣ .

وأما حفظ أموال اليتامى عليهم، وإيفاء الكيل والعدل فى القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان.

قال القطب: فإن قلت إحسان الوالدين من قبيل الثانى أيضا فكيف ذكر من الأول؟ قلت: أعظم النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ويتلوها نعمة الوالدين لأنهما المؤثران فى الظاهر ومنهما نعمة التربية والحفظ عن الهلاك فى وقت الصغر فلما نهى عن الكفر بالله تعالى نهى بعده عن الكفران فى نعمة الأبوين تنبيها على أن القوم لما لم يرتكبوا الكفران فبطريق الأولى أن لا يرتكبوا الكفر"[1].

وهذا الذى ذكره القطب أدق ما كتب فى الكشف عن سر هذه الخواتيم، وهو ما تميل إليه النفس، لكنى ذكرت هذه الأقوال الأخرى لأؤكد على ما ذكرته الدكتورة عائشة عبدالرحمن أن من إعجاز القرآن أن يظل مطروحا على الأجيال تتوارد عليه جيلا بعد جيل، ثم يظل أبدا رحب المدى سخى المورد كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح ، عاليا يفوت طاقة الدارسين[2].

فما قيل فى شأن هذه الفواصل ــ على كثرته ودقته ــ ما هو إلا محاولة للكشف عن سر من أسرار هذا الكتاب المجيد.والله أعلم.

وبعد: فلعلى بهذه المحاولة المحدودة بطاقتى، قد قدمت شيئا فى فهم كتاب الله العزيز؛ لأنى حاولت بكل جهد ــ مستضيئا بسلف الأمة وعدولها ــ أن أجلى شيئا من أسرار هذا البيان المعجز فى

(١) ينظر روح المعانى جـ٨ صـ٥٦ .
(٢) الإعجاز البيانى للقرآن صـ١٩ د/ عائشة عبدالرحمن ط دار المعارف ط ثانية .

الحرف، وفى الكلمة، وفى الجملة، وفى الأسلوب، وفى العرض، وفى الفاصلة.

فإن أكن قد وفقت فى ذلك فلله الفضل والمنة ـ لأن التوفيق فى فهم كلام الله لا يأتى إلا منه ـ وإن تكن الأخرى فحسبى أنى عشت فترة من عمرى مع كتاب الله أتلوه وأتدبره، وهذه وحدها متعة لا تدانيها متعة، وأرجو الله ـ سبحانه ـ ألا يحرمنى أجر المجتهد المخطئ، كما أسأله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به، وأضرع إليه أن يعفو عنى فلا يؤاخذنى بما يكون قد جرى به القلم فكتب فى غفلة منى حول كلام الله معنى غير مراد، وخط كلمة لا تليق، إنه عفو غفور، والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. آمين.

الباحث

سعيد إسماعيل الهلالى

مدرس البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالزقازيق

مصادر البحث ومراجعه

١- الأساليب الإنشائية غير الطلبية فى القرآن الكريم ـ رسالة دكتوراه للكاتب مقدمة لكلية اللغة العربية بالزقازيق عام ١٩٩٧م.

٢- أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى مكتبة القاهرة. ط ثالثة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٣- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطى ـ عالم الكتب ـ بيروت.

٤- الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق للدكتورة عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ـ ط ثانية.

٥- الإعجاز النحوى فى القرآن الكريم د/ فتحى عبدالفتاح الدجنى . مكتبة الفلاح ط أولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٦- الأمالى الشجرية إملاء الشريف السيد الإمام المعروف بابن الشجرى ت٥٤٢هـ ـ ط دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

٧- البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. دار التراث ـ ط ثانية.

٨- تاج العروس للزبيدى ـ المطبعة الخيرية بالقاهرة ط أولى ١٣٠٦هـ .

٩- تأملات فى بلاغة القرآن د/ عبدالحميد مصطفى إبراهيم ـ مطبعة الأمانة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٠- التعبير القرآنى ـ د/ فاضل صالح السامرائى ـ ط دار عمار . الأردن.

١١- تفسير إسماعيل حقى البروسوى المسمى بروح البيان ـ دار إحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان ـ ط سابعة ١٤١٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٢- تفسير الألوسى المسمى بروح المعانى ـ دار إحياء التراث العربى . بيروت . لبنان.

١٣- تفسير أبىحيان المسمى بالبحر المحيط . دار الفكر. بيروت. ط ثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٤- تفسير الخازن المسمى بلباب التأويل فى معانى التنزيل . مصطفى البابى الحلبى.القاهرة.ط ثانية١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

١٥- تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف. دار الفكر . بيروت لبنان.

١٦- تفسير أبىالسعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ دار الفكر.

١٧- تفسير الشوكانى المسمى بفتح القدير ـ ط دار الحديث.

١٨- تفسير الطاهر بن عاشور المسمى بالتحرير والتنوير ـ الدار التونسية.

١٩- تفسير الطبرسى المسمى بمجمع البيان فى تفسير القرآن . دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

٢٠- تفسير الطبرى المسمى بجامع البيان. دار ابن حزم ط أولى ١٤٢٣ـ ـ ٢٠٠٢م.

٢١- تفسير الفخر الرازى المسمى بالتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ـ دار الفكر ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٢- تفسير القاسمى المسمى بمحاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمى ـ دار الفكر. ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣- تفسير القرطبى المسمى بالجامع لأحكام القرآن.

٢٤- التفسير القيم لابن القيم. جمع أويس الندوى. مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ - ١٩٧٣م.
٢٥- تفسير ابن كثير المسمى بتفسير القرآن العظيم. تقديم عبدالقادر الأرناؤوط - دار الفيحاء . دمشق ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٢٦- تفسير المراغى لأحمد مصطفى المراغى . دار إحياء التراث العربى . بيروت.
٢٧- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا . دار المعرفة - بيروت، لبنان.
٢٨- التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبة الزحيلى - دار الفكر . بيروت ، لبنان ط أولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٢٩- التناسب البيانى فى القرآن د/ أحمد أبوزيد - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
٣٠- حاشية السيد على الكشاف ، دار الفكر. بيروت. لبنان. على هامش الكشاف.
٣١- خصائص التراكيب للدكتور/ محمد محمد أبوموسى مكتبة وهبة . ط ثانية ١٤٠٨هـ .
٣٢- دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور محمد عبدالخالق عضيمة ط دار الحديث. القاهرة ١٩٧٢م.
٣٣- الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون. تحقيق الشيخ/ على محمد معوض وآخرون - دار الكتب العلمية . بيروت. لبنان. ط أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٣٤- دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى . مكتبة القاهرة.

٣٥- زاد المسير فى علم التفسير ت/ محمد عبدالرحمن عبدالله . دار الفكر ط أولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٣٦- شرح المفصل لابن يعيش . عالم للكتب . بيروت.
٣٧- العين للخليل بن أحمد . تحقيق/ مهدى المخزومى ، ود/إبراهيم السامرائى ـ منشورات مؤسسة الأعلمى . بيروت . لبنان ط أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٣٨- الفتوحات الإلهية لسليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل، دار إحياء الكتب العربية.
٣٩- فى ظلال القرآن . سيد قطب ـ دار الشروق الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
٤٠- الكتاب لسيبويه. المطبة الكبرى الأميرية ببولاق. ط أولى ١٣١٦هـ .
٤١- اللسان لابن منظور ط دار المعارف.
٤٢- لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل د/ فاضل صالح السامرائى ـ دار عمار ـ الأردن.
٤٣- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى . كتاب الجمهورية ـ دار التحرير للطبع والنشر.
٤٤- من أسرار التعبير فى القرآن. الفاصلة القرآنية للدكتور/ عبدالفتاح لاشين . دار المريخ للنشر ـ الرياض .
٤٥- النظم الفنى فى القرآن للشيخ عبدالمتعال الصعيدى ـ مكتبة الآداب القاهرة.
٤٦- النهر الماد لأبىحيان، دار الحنان ط أولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٤٧- الوصايا العشر للدكتور عبدالفتاح عاشور ـ مطبعة الحضارة العربية ، القاهرة ، ط أولى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.